رواية

الغربان 2

الجزء الثاني

عبد الحميد وشفون

كتوباتي
kotobati

الغربـان

الجزء الثاني

عبد الحميد وشفون

روايـــة

الكتـــــــــــاب: الغربان.. الجزء الثاني
تـــــــــــأليف: عبد الحميد وشفون
النوعيـــــــــــة: روايـــة فنتازيـا
صدر عن كتوباتي: 2024م
التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.
وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

الإهداء:.....5
الزائر.....6
الثلج.....20
تواصل.....40
رماد.....57
رهينة.....73
إيضاح.....82
النور.....86
سم 97
ضيوف 106
خيول.....120
عبور.....129
حذر.....141
اكتشاف 151
غياب.....160
خيانة 166
إنقاذ 180
درب 187
من أعلى 193

إنقاذ 201
هروب 213
ضباب 223
نيفين 238
عودة 258

الإهداء:

إليك... أخى الصغير أنس (رحمه الله)

لأنّ الحياة قبلك ومعك وبعدك تختلف... لا حياة تشبه الأخرى

الزائر

في وقت غروب الشمس، حينما تبدأ الظلمة في التدفق، وتنزلق لتندس في زوايا الشوارع مثل الشياطين الصغيرة السوداء المتسللة، سيكون هنالك دائما أشخاص يعودون لتوهم من أشغالهم فيقفون على عتبات بيوتهم في مثل هذه اللحظات يعملون على فتح أبواب شققهم بمفاتيح لا تعتدل بسهولة في أماكنها.

لكن الأبواب تفتح في النهاية، ثم ما تلبث أن تغلق، وتُنزع النعال وتوضع في أماكنها، تنزل أكياس البقول على مائدة المطبخ، ويُملأ كأس زجاجي شفاف اللون بالماء ثم يفرغ نصفه، ويهتز ما تبقى منه في القعر لبضع ثوانٍ ريثما تغلق الثلاجة مرة أخرى.

تسير القدمان إلى الغرفة الواسعة، حيث تجلس الأرائك تمد أذرعها السمينة المتعبة، فيما يتصارع النسيم مع ستائر الشرفة.

تُفتح الستائر، ويندفع الهواء البارد رطبا فوق المنكبين والملامح، ويأخذ الواقف وقته ويتنفس، يتذكر شيئا ما، ثم ينزع إلى صدره ثقل مزعج، وينظر

بعدها إلى السماء فلا يكون هنالك أي شيء مكتوب عليها، إنما فضاء واسع بزرقة محترقة.

جلست خولة على الأريكة تضع ساقا فوق أخرى وشغلت التلفاز بغير رغبة، كان هنالك أصوات لسيارات شرطة تصل من خارج النافذة، لم تكن خولة في كامل وعيها، ولذلك لم تُقدّر إلى درجة كانت تلك الأصوات حقيقية، ذلك أنه كان هنالك سيارات شرطة على التلفاز أيضا، كان اللونان الأزرق والأحمر يدوران خلف بعضهما دون توقف على الشاشة، وكانت المذيعة تحرك شفتيها بحركات سريعة، كانت تُصلح خصلات شعرها من لحظة لأخرى، لم يبدو أنها تقول شيئا يجب سماعه، وجمعت خولة ذراعيها من أثر الريح البارد الذي كان يتسلل.

"ظهور طائر غريب الهيئة يحلق في سماء العاصمة"

كان هذا الكلام مكتوبا على الشريط الأحمر أسفل الشاشة، قرأته خولة ليس أقل من مرتين أو ثلاثة، ثم إنها شهقت شهقة سريعة، وكادت تتشنج يداها من أثر رفرفة غريبة أفزعتها، نظرت نحو الشرفة، لكن لم يكن هنالك

أي طائر قد حط لتوه، أو حتى حلق هاربا، قامت بعد ذلك تغلق الستائر حتى يزول هذا البرد الذي ظل يقرص أطرافها.

هنالك عند الشرفة مدت خولة يدها بشيء من التكذيب ورفعت ريشة طائر من على أرض الشرفة، تأملتها لما يكفي، بينا الدماء تتسارع في عروقها، ومرت برهة، ثم لم يكن هنالك ما يجعلها غير ما هي، إنها كانت ريشة طائر حقيقية، ناعمة الملمس، سوداء ودافئة، وذهبت بعينها نحو الخارج مجددا، لكن الريشة كانت لا تزال موجودة في يدها، ولذلك عادت تقرأ ما كان قد كُتب على الشريط الأحمر بانتباه أكثر هذه المرة.

ثلاثة أشهر مضت على عودتها من ذلك العالم، والآن عادت آثار الغربان تطاردها مرة أخرى، وطوال النصف ساعة التالية التي كانت تأخذ فيها حماما دافئا لم تغب تلك الريشة عن فكرها،وما إن خرجت وهي تغلف رأسها بمنشفة جافة فإنها نظرت مباشرة فوق طاولة التلفاز لتأخذ آلة التحكم مرة أخرى.

جلست بعدها على الأريكة في غطاء دافئ وبيدها عصير ليمون مخافة أن تتلف أعصابها، وعادت تقلب القنوات واحدة بعد أخرى بينا ترشف رشفات طويلة، فقط ضجيج وهرج، أناس يتحدثون ورجال شرطة يحاولون

دفعهم بعيدا عن أحد المباني المرتفعة، ثم بثت الشاشة صورة لرجل ملفع في زي أسود يظهر وكأنه سيثب من طابق مرتفع نحو آخر، كانت قد التُقطت صورة واحدة وكثُر تداولها، مجرد شخص متهور يحاول إثبات نفسه!! ربما، لكن أليس من الممكن أن يكون الأمير جابر؟ ضحكت خولة باستياء وهي ترشف الشراب الحامض، بددت الفكرة بطريقة أو بأخرى، وراح يمر في رأسها شريط موقعة انهيار البرج في الأرض الوسطى.

انقضى الليل سريعا،و زال الظلام وحل محله ضوء ساطع، وتحركت الدنيا وارتمت الأقاويل نحو الأوجه، قضى الناس أشغالهم على مدار ثماني ساعات كاملة، ثم أُطلقت تنهيدات آخر العمل، وعندما كانت خولة تهم بركوب سيارتها عائدة فإنها التفتت مفزوعة بعد أن شعرت بشيء يمر خلفها، كان هفيفا دافئا، ولوهلة أحسته يلامس شعرها.

أثناء القيادة ظلت لا تنظر إلى موضع آخر غير خطوط الطريق البيضاء المقطعة، كانت لا تدير المقود إلا بمفاصل أصابع يدها، ولا تنفك أشرطة ذلك العالم تظهر في ذاكرتها، وحينما توقفت بعد ذلك أمام العمارة التي تسكنها فإنها نزلت ونظرت في ما حولها، ولم ترى أحدا يتشبث في أي

موضع خطر، ولم يكن هنالك غربان أيضا، عوت السيارة وسكتت، وطلع المصعد بصمت نحو الأعلى.

رمت خولة محفظة يدها على الفراش ونظرت إلى الهاتف، لم تكن قد أخذته معها إلى العمل، كان هنالك اتصالات فائتة ورسائل، وأغلقته بالكامل بعد ذلك، في غرفة الضيوف كانت الألوان على حالها، مضاءة ولامعة، كانت الريشة السوداء لا تزال في مكانها موضوعة على طاولة التلفاز مثلما تركتها، نظرت إلى الستائر، كان من عادتها أن تفتح مصراعي باب الشرفة قبل خروجها صباحا حتى يتجدد هواء الشقة، فيما تبقي الستائر مغلقة، وها هي الآن تراها مفتوحة، مشت نحوها بقلق، وعند اقترابها رأت ريشة غراب أخرى على الأرض، وقبل أن ترغب في أخذها فإن هفيفا اَخر سار من خلفها فأفزعها، كان كأنفاس حارة تؤخذ، التفتت خلفها وطلعت من فمها صيحة فزع قوية.

****

عادت خولة من المطبخ وهي تحمل في يدها كأس ماء بارد، ناولته شخصا كان يجلس على الأريكة ومشت نحو الشرفة تطالع المدينة، انزلق ماء

الكأس في حلق الرجل دفعة واحدة، لم يدم وقوف خولة طويلا عند الشرفة حتى عادت نحو الداخل، واتكأت بظهرها على الجدار حيث ينزل طرف من الستائر:

- "كيف هم أهل أرض الغابة؟".

- "ألن تسأليني لم جئت إلى هنا؟".

كانت خولة تقف ويداها على الجدار خلفها، كان في وجهها أُنفة، غير أن صدرها كان عامرا بالفرح، لكنها لم ترد أن تظهر له سعادتها برؤيته، هو دأب أنثى عنيدة، وظلت تطالعه للحظات طويلة، ثم مشت بعدها إلى الطرف الآخر من الأريكة وجلست، وضغط الأمير جابر بيديه على الكأس الزجاجي الفارغ حتى كاد يكسره بينا يراها وهي تنزل بصرها بحزن عند قدميها، قالت:

- "لم يعد".

- "أعرف ".

رفعت رأسها نحوه، ضغطت على جلد الأريكة بيديها وجعلت تنظر إليه بعينين تضيقان قليلا:

- "ربما أكون قد عرفت أين يمكن أن نعثر عليه حقا".

ووثبت خولة من مكانها:

- "هل لا يزال حيا، أرأيته؟".

- "هو...".

كانت خولة ترتدي بيجامة زرقاء جميلة، وكان منظر المنشفة المنتفخ فوق رأسها مضحكا قليلا، لكنّ بالرغم من أنّ فستان أرض الغابة كان أكثر تعقيدا من هذا إلا أن البيجامة بدت أجمل بكثير عليها، صمت الأمير جابر للحظة، ثم عاد يقول بعد ذلك :"هو بخير الآن، لكنّه محتجز عند الأمير شهاب، كان هنالك منذ فترة طويلة، تائها في أعالي جبال أرض الرياح، قبل أن يُعثر عليه ويتم سجنه مرة أخرى"

ونطقت خولة تقول في قلق:

- "ماذا تعني بقولك مرة أخرى؟"

- "لقد كان مع رفاقك، كانوا جميعا في سجن واحد، ويبدو أنهم حصلوا على فرصة لإنقاذ شخص واحد فاختاروا والدك... وجدوا طريقة لتهريبه، لكنهم دفعوا حياته ثمنا لذلك".

- "يعني أنه كان سي..."

ولم تجرأ خولة لأن تذهب لأبعد من ذلك، بسبب من شدة بشاعة الفكرة، وقال الأمير جابر بعدها:

- "سوف نستعيده، ولهذا أتيت لإعادتك..."

قالها بثقة صرفة وهو يسند ذقنه على قبضتيه المجمعتين بينا لا يزال يحكمهما حول الكأس الذي ظلّ ناجيا بطريقة ما حتى هذه اللحظة، ثم إنّه وضع الكأس بعد ذلك وقام يمشي نحو الشرفة، وتبعته خولة فوقفت بجانبه وراحا يطالعان أضواء المدينة، كان الأمير جابر يتأمل البنايات المقابلة، ألوانها، وأضواء المصابيح التي تضيء النوافذ، ثم نظر إلى السماء المرصعة وأردف يحاول أن يزيل صمتا ثقيلا طاف بينهما:

- "فإذن هذا هو عالمك!".

- "عالمنا".

- "أجل... عالمنا الذي يشبه الكرة العملاقة!".

وردت خولة تحاول أن تتناسى الحزن الذي كان قدغلف وجهها قبل لحظة:

- "كرة كبيرة جدا، بحيث تبدو وكأنها أرض مسطحة"

- "وماذا عن النجوم؟"

- "ما بها؟"

- "هل هي حارقة مثل الشمس، أم باردة مثل القمر، أم دافئة مثل هذه الكرة، أرضنا؟"

- "النجوم حارقة، لكن توجد كواكب كثيرة، بعضها مثل القمر، وبعضها يشبه الأرض أيضا، لكنها غير مأهولة، ليس بعد"

- "غير مأهولة؟"

- "هنالك من ينوي أن يذهب"

ونظر إليها الأمير جابر بعجب، ذلك أنه إنما سألها مازحا:

- "أنت جادة؟".

وأسندت خولة يديها على ذراع معدني يحد الشرفة:

- "بلغنا القمر، ويوما ما سوف سنبلغ الكواكب البعيدة أيضا، هي مسألة وقت فقط"

- "القمر؟"

والتفتت إليه بنظرة تحدي:

- "منذ خمسين سنة".

هرب الأمير جابر ببصره مجددا نحو المدينة، كان الجو منعشا وباعثا على السهر، رغم أنّ الأضواء كانت تلمع نعسة، تدافعت المركبات بهدوء خلف بعضها، ووقفت متراصة حينما كان هنالك ضوء أحمر يلمع.

- "عالمي صغير جدا"

وضحكت خولة مثل طفلة صغيرة، وحينما لملمت نفسها، أخذت نفسا أنعشها وقالت تحدق في السماء النابضة:

- "توجد تسعة نجوم تلمع أكثر من غيرها، ثلاثة منها لها أسماء توافق الوحوش التي تحرس الأراضي في عالمك... النسر الواقع، قلب العقرب، ورجل القنطور"

- "يبدو أن رحلة ذلك الزائر كانت طويلة"

- "أجل"

- "أليس هنالك نجم للغراب وللتمساح؟"

وضحكت خولة مرة أخرى:

- "لا..."

سُمع صوت جرس الباب في هذه اللحظة، وذهبت خولة ترى الطارق، وحينما عادت بعدها فإنها عادت وهي تحمل علبتي كرتون مربعتي الشكل

في يديها، وضعتهما على طاولة صغيرة وفتحت واحدة، وقال الأمير جابر وهو يقف عندها:

- "ما هذا؟"

وردت خولة في ابتسامة:

- "بيتزا... الآن لدي شغل في المطبخ، سأعود بعد قليل"

هكذا تركت خولة الأمير جابر لوحده، حائرا يتأمل البيتزا، ومرّت الدقائق وعادت خولة، نظرت وإذ بإحدى العلبيتن قد فرغت بالكامل، وراحت تحملها من على الطاولة:

- "هل أعجبتك؟"

- "لم أتناول شيئا منذ فترة"

ونظرت إليه خولة شزرا، كانت تفهم أنه لن يظهر إعجابه بطعام هذا العالم بمثل تلك السهولة، وجلست على الأريكة المقابلة وقالت:

- "لم أسألك حتى اللحظة كيف وصلت إلى هنا؟"

ورد الأمير جابر:

- "الغربان"

- "قلت الغربان؟"

- "أجل، إنها الغربان "قال ذاك ومال بجسده نحو الأمام قليلا ومضى يسرد الأمر بفكر شارد "أثناء خروجك من عالمنا، كنت قد أرسلت برفقتك غرابا ظل يراقبك حتى اللحظة، حتى أنه يقف الآن في موضع قريب من هذا المكان في الخارج... حسنا، تعرفين أن الوحوش لا تغادر أراضيها، كان هذا في حياة الساحر، الآن يمكن للأمير أن يأمرها فتذهب حيث تشاء، قمت بفصل بعض الغربان عن المجموعة وأحضرتها معي إلى هنا، في الصحراء لم يكن هنالك أحد، ركبت على ظهر الغربان بعد أن تشكلت مع بعضها فأوصلتني إلى هنا... يمكن للغربان أن تتعقب بعضها، مهما كانت المسافة بعيدة لأنها في النهاية جسد واحد".

الآن لم يكن في وسع خولة إلاّ أن تحدق فيه بفاه فاغر، بحاجبان يبتعدان عن بعضهما، ثمّ وبقلب يخفق فرحا، لملمت نفسها بهدوء عبر تحريك عينيها بشكل سريع في عدة مواضع مختلفة من أرض الغرفة، ونطقت تقول بعدها وهي تطالعه شزرا:

- "حتى لو لم تأتي بخبر عن والدي، كنت ستأتي أيضا أليس كذلك؟".

- "...

- "كيف تنوي العودة إلى هناك إذن، ألم تقل أن البوابات تفتح من الداخل فقط؟".

وردّ الأمير جابر قائلا:

- "بنفس الطريقة... أمرت ليث بأن يفتح البوابة بعد أيام ثلاثة، وأن يرسل غرابا آخر، سوف يتعقب الغربان التي في الخارج ويعثر علينا، ويكون ذلك إشارة لنا".

- "كم يكون قد بقي إذن قبل أن يفتح ليث البوابة؟".

- "فقط يوم واحد".

- "تعني غدا؟".

- "أجل".

- "وأين سنكون نحن حينها؟".

- "سنكون هنا، لكن عندما يأتي الغراب ويعثر علينا، فذلك يعني أنه البوابة ستفتح مرة أخرى عند شروق شمس اليوم التالي، هذا ما يفترض به أن يحدث... لكن ما أخشاه هو أن تتكسر اللؤلؤة بعد ذلك".

وأطرقت خولة لبرهة ثم نطقت وفي وجهها دهشة:

- "وماذا يعني هذا أيضا".

- "يعني أن مرات استعمال اللؤلؤة لفتح البوابات محدود بعدد معين، لا نعرفه، لكنها ستتكسر في آخر الأمر ولن يمكن استعمالها بعد ذلك".

- "وكيف تعرفان أن هذه المرة لم تكن الأخيرة، ربما تكسرت بعد انتقالك مباشرة؟".

ورد الأمير جابر وقد تشوش فكره:

- "لا نعرف".

وطأطأ الإثنان رأسيهما بعدها، كان قد اشتد بهما نعاس عظيم حتى اللحظة، لكن لم يكن ثمة من طريقة أخرى لفض الشوق غير هذه، عبر خلق أحاديث لا تنتهي، في النهاية قامت خولة فجلبت وسادة وغطاءً دافئا من غرفة والدها، لكنّ الأمير جابر لم يكن موجودا، غير أنّه كانت هنالك ريشة غراب أخرى حطت بشكل غريب على أرضية الغرفة، لكنها لم تنحني لأخذها هذه المرة.

الثلج

حل صباح اليوم التالي، كانت الشمس تدفع ظلام الليل القارة بأكملها، في عاصمة الجزائر، كان الهواء باردا، والناس هنا لا يتحملون البرد أبدا، هي أشهر باردة، إن الناس يهرعون إلى المعاطف كلما رأوا الستائر تتحرك لوحدها، ارتدت خولة معطفا بنيا دافئا، كان يفترض به أن يكون مجرد يوم عمل آخر، لكنها لم تقد سيارتها نحو المستشفى هذه المرة، إنما توجهت إلى عمق الولاية، لقد قررت أنه ليس من الضير إن هي تأخرت عن العمل لساعة أو اثنتين.

كان مقام الشهيد يرتفع مثل جبل حُفرت جوانبه، شامخا لا يتحدث، ملفعّا بلون الصغر، ركنت سيارتها في موقف قريب ومشت تصعد السلالم الإسمنتية نحوه.

كانت خولة تعلم أن الأمير جابر يراقبها، ولذلك مشت إلى جانب من المقام حيث لا يتواجد الناس وراحت تنتظر، وحيث كان هو بالفعل يقف هناك على قمة السعف الذي كانت تقف تحته، فإنّه وثب من مكانه وراح ينزلق على سطح السعف مستعينا بقدميه وأحدى يديه هابطا نحو الأسفل.

في منتصف المسافة تماما انتقل الأمير جابر إلى الهواء في خفة بالغة، و إن كان لم يهوي على الأرض مثل صخرة ساقطة، فلأنّ عددا من الغربان راحت تتدافع تحت قدميه وحملته برفق حتى وقف على الأرض بهدوء ثمّ عادت تصعد نحو السماء فحلقت فوق المقام عليا، الآن دسّت خولة هاتفها ونظرت يمنة ويسرة تتفقد المكان ثم أنشأت قائلة:

- "سيراك الآن أحدهم وسيجتمع الناس حولنا".

وقال الأمير جابر دون أن يبعد ناظريه عنها:

- "لم؟".

- "لأنه ليس من عادة الناس هنا رؤية أبطال خارقين ينزلون من أماكن شاهقة ويمتطون الغربان هكذا".

ونظر الأمير جابر حوله:

- "أبطال خارقين؟".

- "أين اختفيت في الليلة الماضية؟".

- "كوني استعدت القدرة على النوم فذلك لا يعني أن أغفو كلما سنحت لي الفرصة، لقد أردت التجول واستكشاف المكان أكثر، الآَن هل نصعد لأعلى، الرؤية من ذلك المكان جيدة".

وردت خولة :

"لا"وأمسكت معصم الأمير بشكل أدهشه:"من هنا، لنتمشى قليلا".

في هذا اليوم البارد كان المكان شبه خالٍ، ولذلك قادت خولة الأمير نحو الأدراج ووقفا على حافتها يطالعان المدينة، راحت خولة تترنح وقفة في مكانها وقالت بينا تطالع المكان بفخر بالغ:

- "أليس لديك أي أسئلة؟".
- "عن ماذا؟".
- "عن الأشياء التي تراها، أليس هنالك ما تود أن تسأل بشأنه".
- "أود"
- "إذن"
- "لكنك أنت لم تسأليني عن كل الأشياء التي رأيتها في عالمي"
- "أجل"
- "ولا أظنه يليق بي أن أبدي رد فعل أكثر من أبديته"
- "معك حق"

الآن ظهرت امرأة تصعد الأدراج برفقة طفلها الصغير، كان الطفل يطالع الأمير جابر بفرح بينا يرفع ركبتيه على الدرجات بصعوبة، عندما وصلا

لأعلى، حملت الأم طفلها إلى الجانب الآخر ثم مضت به بعيدا وهي تنظر بعين مبهوتة، تبسمت خولة ضاحكة، واستدارت نحو المقام ويديها في جيبي معطفها:

- "هل تدري ما هذا؟"

والتفت الأمير جابر، فأجابت خولة عن سؤالها:

- "إنه رمز تذكاري لحربنا"

- "ضد من؟"

- "ضد..."

- "أتوقع أنه لم تكن هنالك سيوف في أيديهم"

- "لا أبدا"

واستدارت خولة تعود ببصرها نحو المباني البعيدة،بعد بعض الوقت كان وجهها قد شحب قليلا وصارت تقول بصوت قلق:

- "كيف هي السيدة مريم؟"

- "إنها تماما مثلما تركتها"

- "والسيدة نجلاء؟"

- "لا تنفك تذكرك من وقت لآخر، لقد أحزنها رحيلك جدا"

- "يمكنني تخيل ذلك"

- "الجميع يفتقدونك، منذ غادرت سرت في القصر كآبة"

ونظرت إليه خولة شزرا:

- "أأنت تقول هذا؟"

- "..."

وسرت في جسد خولة رعشة باردة، تلاطمت نسائم الهواء خلف أُذنيها، وضغطت منكبيها لما تفاقمت في قلبها فرحة، صمتت للحظات وراحت تقول بعدها:

""مهمتي هنا هي مداواة أسنان الناس، لكن في ذلك اليوم الذي دخلت فيه عالمكم، وكان يفترض به أن يكون مجرد يوم عمل آخر، لكن ولسبب مفاجئ تقرر أن أرافق والدي إلى الصحراء بدل ذلك، أتدري لما؟"

- "..."

- "بسبب فراشة... كان قد نشب حريق في مكان العمل، لم يكن من شأني أن أفهم سبب حدوث ذلك، لكن عندما عدت قبل شهرين أخبروني أن فراشة صغيرة تسبب في ذلك، كانت قد وضعت بيضها في مكان تتواجد به أسلاك تنقل... حسنا، بسبب البيض حدثت شرارة نشبت عنها نار صغيرة،

نار أحرقت الأجهزة، عندما يحدث أمر كهذا فإن العلماء يسمونه أثر الفراشة... هذا حينما يؤدي فعل صغير إلى فعل يكون أكبر منه كثيرا... دخلت عالما آخر بسبب فراشة أخطأت في اختيار مكان مناسب لتضع فيه بيضها، كان عليها أن تنزل على غصن شجرة أو أي مكان اَخر"

أنهت خولة كلامها وهي تمد الحروف الأخيرة، ولم يقم الأمير جابر بعدها بشيء سوى أنه ردد كلامها وعيناه تضيقان في المدينة:

- "أثر... الفراشة"

لمعت السماء بصفرة المغيب، ضاق الأفق، وتسارعت أشلاء الرياح مثل خيوط تسوط جنبات المباني الواقفة، كانت ضلفتي باب الشرفة تهتزان بتتابع، وأطفأت خولة شاشة التلفاز ومشت نحو الخارج، كان الأمير جابر واقفا على الشرفة يضم ذراعيه ينظر بعين قلقة، وقفت خولة بجانبه ومر وقت قبل أن تنطق قائلة:

- "أيقلقك الخبر بهذه الشّدة؟"

ورد الأمير جابر وهو ينزل ذراعيه على حديد الشرفة:

- "أحاول أن أفهم لماذا قد يكذب الساحر، فلا أصل إلى جواب محتمل"

- "لكن ليث..."

وقاطعهاالأمير:

- "يمكنني أن أصدق بصحة الخبر منذ اللحظة، فلا دخان بلا نار، أليس كذلك؟"

قالها وهو ينظر في عينيها مباشرة، وردت خولة وفي عينيها لمعان يتحرك:

- "هل هذا يعني أنه ستُخلق مشاكل أخرى".

- "هذا تماما ما يفترض به أن يحدث"

إلى هنا انتهى حديثما القصير قبل أن يأخذا في مشاهدة المدينة بصمت مطبق.

بالعودة إلى ما قبل هذا المشهد، كان غراب قد أتى يحط على الشرفة، وكان الأمير جابر في انتظاره، وحينما انتزع منه ورقة كانت على ساقه وراح يقلبها فإنه وجد فيها ما نصه:

"إنني أقدم اعتذاري يا سيدي الأمير جابر، لقد وصلني خبر مفاده أن أرض الرمال عينت أميرا جديدا عليها، بصفاته المعروفة، و إنني سأخرج اللحظة لأتفقد الأمر بنفسي، ولهذا سوف أتأخر عن فتح البوابة ليوم آخر"

بهذا تقرر أن رحلة العودة سوف تتأخر ليومين آخرين، لم يكن يقلق الأمير جابر أنه عاد لأرض الرمال أمير يحمل مقدرات خارقة، وأنه سوف يعيد لها هيبتها التي فقدتها منذ مقتل الأمير أكثم، إنما كان جل فكره منصبا على كذب الساحر، ذلك حينما أخبره وبقية الأمراء بأنهم سيكونون آخر أمراء يحملون قوى خارقة، وأن كل أرض ستعود إلى مراسيم التعيين القديمة بعد أن يموت أميرها.

الآن تبسمت خولة كأنما مرغمة، ثم قفلت قائلة:

- "ما رأيك أن نذهب غدا إلى مكان ستحبه كثرا؟"

- "ماذا؟"

- "بما أن رحلة العودة سوف تتأخر"

ورد الأمير جابر هازا رأسه:

- "أجل، ليكن"

انطفأ العالم، وجاء ضوء الصباح بعد عشر ساعات فقط لينيره مرة أخرى، وكانت خولة قد استيقظت في وقت باكر لفرط الحماسة، كان يحدو تصرفاتها نشاط وغبطة، ونظرت إلى الخارج وكان ثمة غمام تراكم في الأفق، تناولت فطورها على عجل ثم مدت في ذراعها معطفا صوفيا ووضعت على رأسها قبعة صوفية وراحت نحو المصعد .

كانت في قيادتها المتأنية تأخذ في النظر عبر النافذة من وقت لآخر، لكن لم يتأتّى لها أن ترى الغراب الكبير الذي كان يحلق في السماء يتتبعها بسبب من أنه لم يتحرك في زاوية نظرها، نظرت بعد فترة إلى الساعة بجانب المقود، كان الوقت يشير إلى التاسعة، ولاقتها لافتة مكتوب عليها أن مدينة البليدة ترحب بكم، مشت عبر الطريق لساعة أخرى، ثم كانت تدخل منعرجا ثلجيا ذو جنبات بيضاء ساطعة، كانت كثافة السحب في السماء تزداد كلما تقدمت في المرتفع، كان هنالك مدخل يقف عليه أناس وبعض من أفراد الشرطة، ومرت خولة من بينهم بهدوء تقود سيارتها، وتراءى لها من بين الجمع أن مركبة كانت تميل عن الطريق وقد تهشمت مقدمتها في جذع شجرة، وتقدم منها رجل شرطة وسالت من فمه كلمات تحذير سريعة.

في محطة الانطلاق كان هنالك مصعد هوائي على وشك أن يقلع، وكان فيه مكان شاغر، في الأعلى، وحيث تختفي خيوط المصعد بين الضباب وأشجار الأرز المائلة، لم يكن ثمة ما يمكن تمييزه، كان الجو أبيض داكن، وراحت أشلاء الثلج تتساقط على المنتجع، ظلت خولة ترنح ساقيها في الهواء جيئة وذهابا وهي تركب المصعد بينا تقلّب ناظريها في السماء المدلهمّة.

عندما نزلت بعد ذلك وسط جموع الناس الملفّعة في معاطف وكنزات شتوية، وقفازت دافئة وبوطات ذات أعناق طويلة، وأغطية رأس صوفية، فإنها راحت تتذكر يوما جميلا مضى، يوما قضته هنا رفقة والدها، احمرت وجنتاها من حرق البرد القارص، ومالت نحو جانب منعزل وظلت تراقب الأطفال وهم يتزحلقون على مراكب خشبية، بعد لحظة، نزل من خلفها صوت وكأنما هبط من السماء فجأة، التفتت بغير خوف هذه المرة، وكان الأمير جابر يجثو أمامها بعدما وثب من فوق الغربان لتوه، وقال وهو يرفع يديه عن الأرض بحيرة:

- "هكذا يكون الثلج إذن"

وردت خولة بثغر باسم:

- "أجل هكذا"

كان الأمير جابر قد حمل بعضا من الثلج في يده، وجعل يسحقه بين أطراف أصابعه، رفع بصره نحو جموع الناس وأردف:

- "ما الذي يفعلونه؟"

وقالت خولة تضحك:

- "يستمتعون بوقتهم"ثم إنها راحت تمشي نحو درب يقود أكثر نحو الأعلى :"تعال نتمشى قليلا من هنا"

كان الأمير جابر بمنظره الغريب لا يبدو إلا كشاب طائش أخرج ثياب المسرح في وقت غير مناسب، بلون بدلته السوداء وقناعه الخشبي الذي يغطي وجهه، وبنظرته الرمادية الباردة، وبمشيته الثقيلة المتعثرة على الثلج، راح يحاول مسايرة خطوات خولة، دون أن يلقي بالا للعيون التي كانت تترصده، وظهر أمامهما أناس يتراشقون بكرات الثلج التي راحت تتفتت على رؤوسهم، انتفض الأمير جابر لرؤيتهم، وكاد أن يتدخل لفض النزاع لولا أن خولة أوقفته وهي لا تكاد تنجح في إمساك نفسها عن الضحك، كانت قد أخذت بيده منذ لحظة، وحينما التفت ليراها فإنه حدث أن تأجج في صدره حب عارم، كانت ضحكتها لا تفارق مخيلته، حتى بعدما

كفت عن الضحك، وفي وسط هذا البياض الهائل، لم يكن ثمة ما يقدر على أن يزيد هذا العالم حسنا في عينيه أكثر من شكل ابتسامتها.

قادهما الدرب إلى مكان فسيح تحده أشجار الأرز من كل جانب، كان يرتفع عن المنحدر الذي راح ينزلق تحتهما، صارت ندفات الثلج تنزل سريعة على المنتجع، ووقفا جنبا إلى جنب يراقبان العالم الضبابي في الأسفل، مر وقت ونظرت خولة خلفها، وكانت الأفرع المغطاة بالثلج قد توشحت بالسواد بسبب من أن الغربان حطت عليها، بدا الأمر وكأنها جائت تحرس ظهر سيدها، كانت تقف على الأفرع بسيقانها السوداء القصيرة، تحرك رؤوسها بخفة وتروح تنبش ريشها، عادت خولة نحو المنتجع وضمت ذراعيها:

- "هل أعجبك؟"

- "ماذا؟"

- "الثلج، هل أعجبك؟"

وخفض الأمير جابر رأسه لأسفل.

سألته خولة:

- "ما الذي يشغلك الآن أيضا؟"

- "هذا الشيء"قال وعاد بنظره نحو السماء الغائمة :"ينزل من أعلى، لونه أبيض، بارد... أفكر في كلام الساحر، أليس هذا ما عناه بقوله؟"

- ...

ونظر في عينيها مباشرة:

- "ماء، ماء ينزل من أعلى، ويتبعه برد أبيض!... ماذا يمكن أن يكون غير هذا؟"

وقالت خولة تفطن من سهوها:

- "هل الساحر من قال هذا؟"

- "لم أذكره في ذلك اليوم الذي جمعتكم فيه، فلم أظنه شيئا ذا أهمية"

- "أتظن أنّه سيأتي يوم ويسقط فيه الثلج في عالمك؟"

- "أجل،الآن هذا ما أظنه، لكن لِم، ومتى؟ هذا ما لا يسعني التفكير بشأنه"

- "أصبحت الأمور أكثر تعقيدا من ذي قبل، أليس كذلك؟"

- "هو وعيد الساحر، كان علينا أن ننتظر شيئا كهذا، ثم إنها البداية فقط... حينما نعود سآخذ كل شيء على حدة، بداية بالبحث عن ذلك

المتسلل القاتل، ينبغي علي أن أقبض عليه هذه المرة، أظنه سيكون مفتاحا لأشياء كثيرة"

- "أجل... ستفعل"

- "سنفعل"

وطارت الغربان بعد وقت قصير جدا، وحلقت في الضباب تاركة ورائها الأشجار التي كانت تقف عليها وقد رفعت أكفها بعدما سقط الثلج عنها وخف حملها، وقفل الأمير جابر وخولة راجعين بعدها، وصلا حيث التقيا قبل ذلك، تحدثا قليلا ثم تركها لتعود نحو المصعد واختفى مثلما جاء أول مرة.

عادت خولة إلى العاصمة، وانتظرت أن يأتي الأمير جابر، لكن المساء انقضى ولم يظهر له أي أثر، فكرت في أنه قد قرر استكشاف أماكن أخرى بنسفه، ريثما يرسل القائد ليث إشارته، يبقى أنها ظلت بين الفينة والأخرى تعود لتقف على الشرفة، دون أن تسقط أمامها ريشة غراب أخرى.

انقضى اليوم بأكمله، وفي اليوم التالي ظهر غراب يحط على حديد الشرفة، كانت خولة تقلب صورا قديمة في يدها، وانتبهت لوجوده.

جلسا معا على الأريكة، كان ثمة طعام يطهى في المطبخ، وقال الأمير جابر بينا يمرر أصابع يده على شاشة التلفاز التي كانت تعرض شريطا وثائقيا عن الأرانب:

- "هذا العالم لا ينتهي أبدا مهما واصلت السير في اتجاه واحد"

وقالت خولة وكانت تجلس على الأريكة تعبث بهاتفها:

- "و إلى أين ذهبت هذه المرة؟"

- "نحو الجبال بالأمس، ثم إلى البحر صباحا"

- "وكيف رأيتها؟"

والتفت إليها بنظرة ساهمة:

- "عالمي نموذج مصغر عن عالمك"

وقالت خولة:

- "فعلا"

وجلس هو على ذراع الأريكة:

- "تلك الفوهة، ذكريني بها"

- "فوهة أمقيد"

- "لا، أعني ما الذي قلت أنه كان السبب في ظهورها؟"

- "نيزك"

"أيمكنك معرفة تاريخ سقوطه؟"

- "انتظر لحظة"

وراحت خولة تبحث في الهاتف، وعادت تقول بعد ثوان معدودة:

- "تقريبا منذ... ألفي سنة"

كان صمت الأمير جابر بمثابة الجواب لنظرتها، ثم إنه راح يقول في صوت بحوح غائر:

- "الآن قد بات الأمر واضحا، إن الساحر الأول لم ينشئ ذلك العالم بغير سبب، ليس لأنه أراد ذلك فقط، إنما فع ذلك ليحمي الشعوب التي كانت تعيش في تلك المنطقة، هناك حيث كان سيسقط النيزك"

- "لقد قام بحماية الناس عبر إدخالهم إلى بعد آخر!! "

- "مثلما أنه أدخلهم إلى فقاعة كبيرة غير مرئية"

- "تماما"

وهنا جعلت خولة تبحث في الهاتف بأصابع سريعة الحركة، ثم عادت تقول بعد لحظة:

- "كل شيء متوافق"

- "ماذا يعني؟"

ورفعت بصرها إلى وجهه وكان في عينيها بريق فكرة:

- "مكتوب هنا أن تلك المنطقة في الأصل كان بها بحيرات وأنهار وعشب أخضر، ثم تحولت إلى صحراء قاحلة بعدما تغير المناخ وضرب الجفاف فيها، لكن هذا التغيّر لم يشمل عالمك، لأنه كان بالفعل قد تم إخفاءه في بعد اَخر"

- "منطقي جدا، لكن لماذا أخفى الساحر التاريخ الذي كوّن فيه ذلك العالم... لماذا أبقاه سرًا"

- "أترى هذا مهما؟"

- "لا أعرف، لكن يساورني شعور بشأن هذا... بدأت أشك في كل ما قاله، لكن ما الذي يمكن أن يدفع أحدهم لأن يكذب وهو على وشك الموت، إلا إذا"

- "إلا إذا ماذا؟"

وأوشك الأمير جابر أن يخبرها بأنه بات يشك حتى في كون الساحر قد مات فعلا، غير أنّ غرابا ظهر على الشرفة فجأة وراح ينعق نعقات متقطعة، ومشى الاثنان صوبه، ووثب الغراب على ساعد الأمير جابر.

- "هذه هي، الإشارة..."

انقضى النهار ثقيلا وكأن الوقت قد أصابه الوهن، وحينما حلّ الليل وانتصف وقفت خولة تنتظر عند الشرفة، كانت كل الأنوار مطفئة في المباني المقابلة، إلا أن الأزقة في الأسفل لم تخلو من حركة، كان الجو قد صار ألطف، وخفّ البرد عن الأيام السابقة، ووضعت خولة دثارا دافئا على كتفيها بينا تنظر نحو السماء المرصعة، فجأة، ظهر غراب صغير يرفرف أمامها، كان صدره مزينا بريش أبيض، ثم وبعد لحظة، نزل الغراب الكبير الذي كان بحجم حصان مجنح، كان الأمير جابر يقف على ظهره، وراح

الغراب يدنو من الشرفة، ومد الأمير جابر يده إلى خولة، وما إن صارا عليه معا حتى طار بهما عاليا وراح مثل السهم يخترق الظلام في سرعة بالغة، كانت المسافة من العاصمة حتى تامنراست تتطلب يوما ونصف اليوم بالحافلة، لكن على ظهر غراب أسطوري من عالم آخر، كان لابد أن يتقلص الوقت ويصير أصغر، ذلك أنه بعد ثلاث ساعات فقط، راح ضياء الشمس يطلع جهة المغرب، وكان الغراب قد وصل بهما في هذه اللحظة فوق منطقة أمقيد تحديدا، وجعل يفرد جناحيه بهدوء يحط على حافة الأرض الصخرية، وحينما نزلا عن ظهره فإنهما وقفا يتأملان الفوهة العظيمة بعيون بدت وكأنّها تفكر.

كان الفراغ الهائل بين طرفي الفوهة يبعث فيهما شعورا بالصغر، وحينما تساقط شعاع الشمس في التجاويف الصخرية الجافة، فإنه بدا منظرا بديعا بشكل لا يصدق، وقعا في سحر المشهد، وزاده حسنا أن الغربان تفرقت عن بعضها وصارت تدور في حلقة دائرة فوق الحفرة، ثم وفي خلال هذا، نطق الأمير جابر يقول وكان في صوته غصة:

- "مِن هذا المصير إذن قد أنقذ الساحر الأول أجدادنا الأوائل"

ورفعت خولة بصرها نحوه فتابع قائلا:

- "هل كان هذا عقابا على التمرد الحاصل في ذلك الزمن.. عقابا من السماء نفسها!... كان الناس يهاجمون بعضهم، القبائل تتقاتل، الحقد والكراهية يتوارثان مثل الأسماء تماما، لم يكن هنالك من يحكم، لا أحد يخبر الآخر بأن ذلك خطأ، كانوا مثل الوحوش الهمجية، ثم أوشك هذا أن يبيدهم"

وقالت خولة بصوت كاسف:

- "ينبغي ألا يعود الناس إلى مثل ذلك مرة أخرى، رغم أنّه في هذا العالم يوجد من هم أكثر..."

ولوهلة بدا وكأن الأمير جابر لا يمسعها، ذلك حينما قاطعها مكشرا:

- "لن أغفر لمن يتطاول على القوانين... ولن أسمح لأي أحد بأن يدمر ما بناه الساحر، إن هذا العالم الصغير موجود هنا، وسيبقى موجودا"

هكذا، وبغضب انتابه بشكل مفاجئ، راح الأمير جابر يفوه في حدة وضراوة، حتى إنّ خولة خافت من ردة فعله، وأمسكت يده حتى يهدأ، بعد دقيقتين فقط، كان الأمير جابر قد عاد لطبيعته، وصار ينظر بعينين تنتظران شيئا، وحينها ظهر في الحفرة زوبعة صغيرة، ولم تلبث أن صارت مثل جدار متحرك، وراح الجدار ينمو نحوهم، وخلال بضع ثواني فقط، تحول الجدار

الرملي إلى موجة عملاقة من الرمل الأصفر، ووقف الاثنان أمامها بثبات وعزيمة، فيما تداخلت الغربان واختلطت فيما بينها وضجت ثم أعادت ترتيب نفسها وراحت تسقط كالسهم خلف بعضها في عمق الموجة.

ضغط الأمير جابر أصابع يده على راحة خولة، وأغمضا أعينهما اتقاءً للرمل المتطاير، وفي لحظة، كان الموج الأصفر قد ابتلعهما بداخله .

تواصل

عندما وقف القائد ليث ينتظر رد الأمير جابر بشأن ما يمكن فعله بخصوص أميرة أرض الرمال الجديدة، فإنه وقف ويده على مقبض سيفه وسط القاعة كتمثال من مرمر، كانت عيناه لا تزيغان كرسي الإمارة، وكان في وجهه ما ينم عن سخط بالغ، تماما مثل سيده، ونطق يقول بعد لحظة:

- "سيدي"

ورفع الأمير جابر رأسه وقال بتثاقل:

- "أدعو لي خولة يا ليث ثم لا تدع أحدا يدخل إلا هنا أبدا"

ووقف القائد ليث للحظات أخرى، لا يحرك ساكنا، كأنما أدهشه الطلب:

- "أمرك سيدي"

قال واستدار نحو المخرج.

دخلت خولة بعد لحظات قليلة، وكان الأمير جابر يقف وسط القاعة بانتظارها.

- "طلبتني"

- "أجل"

كانت قد انقضت ليلة واحد على عودتهما من العالم الخارجي، وتم خلالها فض الشوق الذي كان بين خولة وصديقاتها، أما من جانب الأمير جابر فقد تلقى التقارير اللازمة من قائد جنده، ولذلك عرف يقينا بأنّه صار لأرض الرمال أميرة تحكمهم، أميرة بمثل تلك القوى التي كانت لدي الأمير أكثم وأسلافه، ثم إنّ هذا الأمر أرّق مضجعه، وراح يفكر طوال الليل فيما يمكن أن يفعله لكشف سر هذا الأمر الذي لم يتوقع أحد حدوثه، ولهذا وقف الآن يطالع خولة بنظرات مبهمة، نظرات جعلتها تشعر بقلق.

- "أريد أن أجرب شيئا"

قال وفي نبرته حيرة، ودنى منها خطوتين بعد ذلك، فاضطرب نبض خولة وصارت خفقات قلبها سريعة، وردّت:

- "تجرب ماذا؟"

- "الأمير، عندما يتم تعميده، ويخرج بعد ذلك من كهف التعميد فإنه يخرج وقد مسحت ذاكرته من كل ما يكون قد وقع في الداخل... الآن، ما أريد أن أفعله هو... إن كنت تسمحين طبعا، أن أجعلك ترين ما يحدث أثناء التعميد"

- "كيف ذلك؟"

- "الأمر يشبه ما حدث في المرة السابقة، حينما حاولت أن أقرأ أفكارك، سأضع يدي على جبينك، وسأحاول تذكر ما حدث، لن أنجح طبعا، لكن أنت ستواصلين من حيث سأتوقف"

لاذت خولة إلى الصمت إذ لم تعرف ما تقوله:

- "طالما أنني كنت هناك وحضرت الأمر بنفسي، فالحدث باقٍ في مكان ما من ذاكرتي حتى لو منعني الساحر بطريقة ما من تذكره"

- "تعني أنني سأبحث في ذاكرتك، عن تلك المراسم"

- "أظنّ أنّ هذا ما ينبغي أن يحدث"

وها هي مرة أخرى، تفهم خولة مدى الثقة التي يوليها إياها الأمير جابر، ولمعرفتها بمدى أهمية هذا الأمر فإنها لم تتردد لحظة واحدة في قبوله، والآن طلب منها أن تكتم أنفاسها وأن تصغي إلا صوت عقله، كان قد وضع أطراف أصابع يده اليمنى على جبينها، وراح كلاهما في ظلام دامس، كانت خولة قد أغمضت عينيها، أما عيني الأمير جابر فظلتا مفتوحتين بيد أنّ لونهما تحول إلى الأبيض .

كان هناك صوت نعيق يأتي من سماء عالية، كان الظلام يغطي الرؤية، لكن بعد جهد مزعج، تمكنت خولة أخيرا من فتح عينيها، وبان أمامها خيط ضوء ساطع، مثل شقّ فتح في جدار مرتفع، وراحت الريح تزفر من أعلى، ثم بانت أوراق خضراء تتمايل على أفرع ممدوة كأذرع مرخية، ونعق الغراب فجأة بصوت عال، كان كأنّه يحلق فوق رأسها تماما، ثم انبلج المشهد بشكل واضح، وظهر رأس حصان يهتزّ أمام ناظريها، كانت كأنها ترى بعيني شخص آخر،عيني رجل، كان يرتدى قفازا أسود اللون بينا يمسك لجام الحصان ورأته ينزل من على ظهره أمام جدار صخري مرتفع، مشى بضع خطوات حتى وقف أمام مدخل كهف مظلم، ثم هاجم السواد مرة أخرى بصرها وصارت في ظلام لجي ليس له طرف أو جانب.

عندما عاد المشهد بعد ذلك، وجدت خولة نفسها تمشي في نفق منار بمصابيح زيتية، وسرعان ما انتهى إلى غرفة غير ذات أوجه، تبدو وكأنها حفرت بشكل غاضب، بحيث تظهر في جوانبها المنحنية صخور كبيرة ناتئة، عليها كتابات بيضاء دُونت بخط سيّء، كان هناك قطرات ماء تنزل من أعلى وتصب في حفرة في الأرض مملوئة بدم أحمر، ظلت القطرات تتساقط، والحفرة تفيض جوانبها، غير أن الدم كان يبقى في مكانه لا

يذهب، وكأن الماء كأنّما يغسله، فيما يفيض بعد ذلك سريعا إلى الأرض فيختفي في شقوقها الصغيرة، رفع الناظر بصره إلى الصخور البارزة، ثلاثة جنب بعضها، كان في الأولى تعاليم لما ينبغي فعله، لكن في الصخرة الثالثة كان هنالك كلام بلغة غير مفهومة، لم تقدر خولة على قرائتها، ظل المشهد مصوبا عليها لوقت طويل جدا، ثم راح صاحب العينان اللتان كانت خولة ترى من خلالهما يجلس مقرفصا أمام الصخرة الوسطى، حيث راح يخرج منها دخان أسود، لكن سرعان ما أتى الظلام مرة أخرى.

حينما عاد المشهد، صار لا يُرى شيء سوى باللونين الأبيض والأسود، بدى مندهشا جدا، ثم راح الأمير جابر يصرخ بصوت مرتفع، كان صوتا ينم عن وجع، وقف يستند على يديه بصعوبة، ثم تراجع إلى الخلف نحو حفرة الدم التي لا تنضب.

انحنى الأمير نحو الحفرة وجعل يغرف منها بديه تنفيذا للتعاليم التي قرأها على الصخرة، ولبث يتأمل حفنة الدم بين يديه للحظة، كان هناك شيء يتحرك على رسغه، لكنه لم يتأثر لوجوده، ووقف بعد ذلك بينا يتقاطر الدم من يديه وعاد فأطلق صرخة قوية كان جليا أنها انبعثت خارج الكهف تماما.

أعادت خولة شرح كل ما رأته للأمير جابر، لكن ومن وراء القناع كان بمقدورها - بعد كل حدث كانت تقصه - أن ترى عيناه وهما تضيقان شيئا فشيئا، الآن دخل القائد ليث إلى القاعة، تماما مثلما أنه أحس بأن عليه أن يسمع هذا، وواصلت خولة تقول حينئذ:

- "أعتقد أنك شربت من الدم الذي كان في الحفرة"

ونطق الأمير جابر بنبرة حقد وغضب:

- "فعلا، لقد كان يكذب، هو لم يمت، و إلا..."

وتدخل القائد ليث:

- "من الذي لم يمت؟"

ونظر إليه الأمير جابر وأردف:

- "أثناء التعميد، لا يكون هنالك أحد آخر في الكهف غير الشخص الذي سيتم تعميده، كل مراسم التعميد تتم وفق تعاليم مكتوبة، ويتم تنفيذها بسهولة، فلا يتطلب الأمر حضور الساحر... الآن بتنا متيقنين من أمرين اثنين، أولهما أن الساحر قد كذب لهدف ما، وأغلب الظن أنه لم يمت.. والثاني هو، أن عهد الأمراء لم ينتهي، إذ سيكون بالإمكان دوما تعميد أمراء جدد دون الحاجة لوجود الساحر"

الآن سرت في وجه القائد ليث دهشة مثل تلك التي كانت لتصيبه لو أنّ أحدهم أخبره بأن جدران المدينة قد سقطت، ركن إلى فكره للحظة، وحين فهم ما الذي كانا يفعلانه قبل لحظة، فإنه نطق يدمدم بحرارة:

- "لكن الأمير المنصّب حديثا ولحظة خروجه من الكهف سينسى كل ما وقع له في الداخل، فكيف عرفت أرض الرمال بهذا الأمر إذن؟"

وقال الأمير جابر مهموما:

- "لا أعرف يا ليث، ليس لدي أي فكرة"

- "هنالك أمر اَخر..."

قالت خولة وهي ترفع يدها في حياء واضح، فحول الاثنان أنظارهما إليها، لكنها صمتت بعدها ولم تزد على ما قالت، ونطق الأمير جابر:

- "أي أمر؟"

فقالت بتردد:

- "لا، لا شيء... ليس شيئا ذا أهمية"

وخفضت رأسها وراحت في شرود أربكها، غير أن الأمير جابر فهم سريعا أنها أخفت أمرا، لكن ولما لم يكن من عادته أن يلحف في السؤال، وخاصة في وضع كهذا، فإنه توجه قبالة القائد ليث يسأله:

- "هل من خبر عن المتجول؟"

- "لا يا سيدي، حتى أن آثاره قلت، يبدو أنه خفف من نشاطه في الآونة الأخيرة، منذ نزل محاربوا أرض الرياح لمطاردته"

- "وأين كانت آخر مرة شوهد فيها؟"

- "بالقرب من الأرض الوسطى يا سيدي، لقد قتل بعض الخيول البرية بالقرب من الأرض الناعمة، ولم يظهر له أي أثر بعد ذلك"

- "هل قتل خيولا برية؟"

- "لقد وصل إلى هذا الحد يا سيدي... لكنني أتيت لأطلعك على أمر ثم نسيته عندما سمعت حديثكما"

- ...

- "الأسرى يا سيدي، رجال أرض الرياح اللذين أمسكنا بهم، لقد أنهوا حياتهم"

- "أمر متوقع"

وأدهش القائد ليث أن الأمير جابر لم يكترث للخبر، بل حتى أنّه راح يضيف معلقا من خلف قناعة:

- "لم نكن لنسيء معاملتهم طالما لم يأتوا لمهاجمتنا، أليس كذلك يا ليث؟"

وشعر القائد ليث ببعض الحرج وحار جوابا لسيده:

- "بلى، بلى يا سيدي"

و إنّ حرجه هذا إلا لأنّه راح يستذكر صور الأسرى وهم يعانون أشد أنواع العذاب في سجنهم، قبل أن يدفعهم اليأس لتخليص أنفسهم بأنسب طريقة رأوا أنها ستريحهم من ذلك العذاب الرهيب الذي لا يُحتمل، والحق أن الأمير جابر إنما كذب هذه الكذبة البيضاء أمام خولة إلا لكي لا تتذكر أيامها الأولى في هذا العالم، حين مكثت بعض الوقت في ذلك السجن المفزع، لكن وهو يغادر القاعة، قال بصوت فيه حنق دفين:

- "مع هذا، أولئك القوم يا ليث... لا تأخذك بهم شفقة "

التفت القائد ليث إلى خولة، كانت لا تزال شاردة في فكرها، وسألها إن كانت بخير حقا، وحينما أفاقها سؤاله، فإنّ عينيها قفزتا في تردد، وقالت بينا تهرب نحو الخارج:

- "سأذهب لرؤية العجوز المداوية"

وهكذا بقي القائد ليث واقفا لوحده، ينظر في زوايا القاعة يفكر، ثم حين لم يكن ثم ما يدفعه للبقاء هناك أكثر، فإنه أرخى ذراعيه وغادر القاعة.

- "هنالك ما أود إخبارك به"

قالت خولة وهي تمط شفتيها، بينا تقف خلف العجوز المداوية.

كانت العجوز قد رشت الماء على الأرض على طول الدرب المؤدي إلى الزريبة، حتى يثقل الغبار فوق بعضه، وراحت تكنسه في زهو عجائزي، وكانت رفضت أن تعطي المكنسة إلى خولة عندما طلبت ذلك منها، بيد أنها سمحت لها بأن تملأ الدلو مجددا، وقالت وهي تجمع وسخ الأغنام في كومة صغيرة:

- "أخبريني"

وتأخرت خولة بعض الوقت في ردها، ثم قالت في شرود واضح:

- "إن الأمير جابر جعلني أخوض في ذاكرته"

توقفت العجوز عن نبش الأرض ونظرت إلى خولة بانتباه للحظة، حدجتها كأنما تحثها على مواصلة الحديث وعادت لما كانت تصنع، فأردفت خولة قائلة:

- "لقد رأيت كل شيء"
- "كل شيء؟"
- "أجل"
- "ما الذي رأيته؟"
- "رأيت مراسم تعميده، بداخل الكهف، لقد رأيت كل شيء"

وسكنت أطراف العجوز في وضع واحد:

- "أتعرفين لماذا اختارك أنت؟"

وأصاب خولة من الخجل ما لم تقدر على إخفائه، فراحت تضغط أصابع يديها استعدادا لما سيأتي، بينا أضافت المداوية بشكل مخالف تماما للمتوقع:

- "لأنك من الخارج"
- "كيف؟"
- "كيف؟"

وتركت العجوز المكنسة واستدارت بكامل جسدها الصغير الذي يشبه جسد سلحفاة واقفة، وأضافت تقول بينا تفكر :"ألم يعجز عن قراءة أفكارك في السابق؟ فيما كان بمقدوره فعل ذلك بسهولة مع جميع الناس

هنا... كذلك ينقلب الأمر إذا أراد عكسه، من الواضح أنه لا يقدر على منح هذه الهبة التي منحك إياها إلى أي أحد آخر من هذا العالم، لا يقتصر الأمر على ثقته بك فقط، بل لإنّه لا يملك خيارا آخر... أنت الوحيدة من لديها القدرة على الولوج إلى ذاكرته، فيما لا يمكنه الولوج إلى ذاكرتك"

الآن ذهبت خولة في شرود باهت، صارت تنظر جهة القصر بنظرة ناعمة، وعاد صوت العجوز ليوقظها:

- "حسنا، الآن أخبريني ما الذي أتيت لأجله، عُدت بعد أشهر، ولم أرى منك شوقا كالذي انتظرنه"

وعادت خولة بوجهها، ابتسمت لحديث العجوز، ثم ران الحزن على وجهها مرة أخرى وصارت تقول بحزن غائر:

- "لا أدري إن كان هذا صحيحا، لكن... أثناء مراسم التعميد رأيت شيئا، كانت هنالك حفرة في الأرض فيها ماء ودم، رأيته يغرف بيديه منها"

- "هل شرب من منها؟"

- "لست أدري، وليس هذا ما أريد قوله... لكنني رأيت شيئا يتحرك على يده، كان يشبه عنكبوتا أبيض، لم أستطع تذكره بشكل جيد، كان صغيرا جدا، لكنّه سرعان ما اختفى تحت كم معصمه"

وهنا ضيقت العجوز عينيها المغبرتين وصارت تسمع بانتباه أكثر.

- "هل قلت أنه يشبه العنكبوت الأبيض؟"

وهزت خولة رأسها بأن نعم، وقالت:

- "عندما عدت إلى عالمي بحثت في مرض الأمير كثيرا، لقد قرأت أن هناك حشرة بإمكانها أن تسبب شيئا كهذا، لا بل إنه يفترض بحامل سمها أن يموت خلال أيام قليلة إن لم يتعرض إلى علاج مناسب، لا أدري كيف استطاع الصمود كل هذه السنوات"

الآن والمداوية تسمع كلام خولة، إذ بفكها يسقط لأسفل ببطء شديد، حتى إذا صار فاهها فاغرا بالكامل، ضربت عصاها في الأرض مرتين وصارت تنظر إلى الفراغ بحيرة، كانت كأنها عرفت سرا طال بحثها فيه، وراحت تبدل العصا إلى يدها الأخرى:

- "انتظريني هنا، سوف أعود بعد دقائق"

بدهائها الذي لا يجارى، وبسرعة بديهتها، فهمت العجوز أن خولة إنما أعرضت عن إخبار الأمير جابر عن الحشرة الغريبة بنفسها إلا خوفا من ردة فعله، ولذلك انطلقت من فورها نحو القصر لتبحث الأمر معه، مرت الدقائق ثقيلة، وجلست خولة في الكوخ تترقب عودة المداوية، كانت الشمس لم

تصل بعد إلى أعلى نقطة، وكانت الأغنام ترغي في زريبتها، وصفقت الباب في مكانها، نظرت خولة، وكان ثمة خروف صغير يدلف نحوها، وصل عندها وجعل يحك جبينه في راحة يدها، وهكذا صار الوقت عندها يمضى أسرع من ذي قبل بمرات كثيرة، إنها وجدت ما تلهي به نفسها عن التفكير الزائد، وعندما عادت المداوية بعد نصف ساعة، كان الخروف يغرق في نوم عميق عند قدمي خولة، والتي قامت تقف بلهفة، كانت عيناها تطرحان أسئلة، ودنت من العجوز في تردد، ونطقت السيدة مريم وفي ثنايا وجهها شبح ابتسامة:

- "إن كان هذا يسعدك فإنني دبرت لك رحلة"

قالت ومشت تجر ساقيها نحو السرير المنخفض، جلست وأضافت تقول بعد عدة أنفاس قصيرة بينا تغمس نظرها في أرضية الغرفة ": لقد كان ظنك في محله، تلك الحشرة... إنها مميتة، ولولا القدرات التي منحت له لكان قد مات وحيدا في تلك الغابة"

نقلت العجوز نظرتها الغريبة بعد ذلك نحو خولة، وراحت تقول بصوت منخفض:

- "الآن لا أحد غيرنا رأى وجه الأمير جابر ويعرف طبيعة مرضه، لا بل لا أحد غيرنا يعرف بأنّه يعاني من مرض يدفعه لوضع ذلك القناع المزعج، و إنني ما غادرت ذلك القصر إلا لهذا، لأنني فشلت في مداواة ذلك الفتى، لقد مكثت في هذا الكوخ لعدة أشهر وأعدت قراءة كل كتب الطب القديمة، لكن دون جدوى، لم أتوصل إلى طبيعة المرض... حاولت أن أصنع له أدوية، لكنه ظل يرفضها في كل مرة، بعد فترة لم يعد يرغب في أن يجرب شيئا لا تكون نتيجته مضمونة... والآن لولا أنك أخبرتني بهذا، لما أمكنني أبدا أن أتوصل إلى طريقة لعلاجه حتى آخر حياتي "

ووثبت خولة تقول بصرخة خفيضة ذات بهجة:

- "هل عرفت الدواء حقا"

وتنهدت العجوز في غبطة:

- "غدا ستذهبون إلى أرض الرماد مجددا... إنّ دواء الأمير موجود هناك في تلك الأرض المقفرة، حشرة مثل تلك، لابد أنها لا تعرف العيش إلا في حفرة مظلمة ونتنة، حيث بمقدورها أن تلقف ذبابة بمجرد أن تفتح عينيها صباحا"

- "تعنيني أننا سنذهب للبحث عن تلك الحشرة؟"

- "أجل، سيتعين عليكم أن تجلبوا الكثير منها، أنّ في بطنها السّم والعلاج معا، و إذا أراد الأمير أن يشفى من مرضه فعليه أن يجلب لي عددا كبيرا منها حتى أصنع له مرهما يُذهب داءه"

أنهت العجوز حديثها وأمالت ذقنها على رأس العصا وراحت في شرود مفاجئ، أما خولة، فكانت نار قلبها تضطرم، لم تكن تشغل بالها أي مخاطر يمكن أن تتبلور أثناء المهمة، لكن كان في وسعها فقط أن تتخيل وجه الأمير دون قناع خشبي أسود، في هذه اللحظة، كان الأمير جابر قد وقف أمام المرآة يطالع وجهه، كان القناع موضوعا على الفراش خلفه، وراح يتأمل ملامحه المتحجرة مثل أرض جفت وظهرت فيها شقوق وتجاويف صلبة، كان هذا مرضه الذي ظل يخفيه عن الناس تحت القناع منذ أن صار أميرا على المدينة، كانت مجرد حشرة صغيرة لدغته على وجهه لحظة ترسميه أميرا، ثم لم يقدر بعدها على أن يُظهر وجهه أمام أحد، ما عدا السيدة مريم وخولة، وهذا فقط حينما رأى أنّه مضطر لذلك، ظل يستذكر ما حدث، لكن لم يصل إلى أبعد من بضعة صور ضيقة قديمة، بداخل الكهف، كانت هناك حشرة سامة يمكنها أن تقتل رجلا قويا، وكان من سوء حظه أنها مرت بجانب حفرة الدم في اللحظة التي كان يغرف بيديه منها، هكذا راح يسترجع

حديث العجوز المداوية حينما جائته قبل ساعة، كان سعيدا بحديثها بحيث لم يقدر على إخفائه، وراح يخبرها أنه لطالما كان يشعر بأن قدوم خولة إلى هذا العالم لم يكن مجرد صدفة، وأنه لابد سيكون لها أثر بالغ، الآن حط غراب على جدار الشرفة، وراح ينقر جناحه، ثم لم يلبث أن قفز إلى ذراع سيده، وصار الأمير جابر يمسح ريشه بينا يرى عيناه الرماديتان في المرآة أمامه، ثم أطبق جفون عينيه على بعضها وغاب في أغوار ذاكرته.

رماد

مر المساء في هدوءه المعتاد، وكان الأمير جابر قد دعى خولة والقائد ليث إلى اجتماع تباحثوا فيه أنسب طريقة لاختراق دفاع أرض الرماد والوصول إلى البحيرة السوداء التي تنبت بجانبها تلك الشجرة الكبيرة، والتي يفترض - كما قالت المداوية - بأن تكون تلك الحشرات بداخلها، وكانت قد هُيئت لهم خارطة تقريبية لمدينة أرض الرماد، فوقفوا حولها يتدارسون الفكرة في جدية بالغة، لأكثر من ساعة، حتى عزموا أمرهم على رأي واحد، كان لخولة فيه نصيب بارع.

مضى الليل سريعا مثل وشاح أسود طيرته ريح عاصف، ثم مع طلوع فجر اليوم التالي، وانسياب خيوط الشمس الذهبية بين الأفرع الخضراء الممتدة، كانت الخيول العشرة لفريق أرض الغابة قد انطلقت في جهد تخترق فصوص الغابات واحدة تلوى الأخرى، على امتداد كيلومترات نحو أرض الرماد التي تقبع في الشمال المرتفع، ثمانية خيول راحت تشق الهواء بصدورها العارية، عبر أقصر طريق ممكن، لكن اثنان منها بدلا وجهتهما عند الأرض

الوسطى، وانفصل الفريقان على أن يكون اللقاء أمام بوابة أرض الرماد في منتصف الليل .

كان القائد ليث يتقدم الفريق بعد الأمير جابر الذي كان قد سبقهم بمسافة طويلة بحصانه الماهر يتفرس الطريق بعينيه الحادتين، في الخلف، سمع القائد ليث اثنان من رجاله يتذمران بشأن الخطة المرسومة، كان أحدهما يقول لصاحبه أنه لم يكن ينبغي على الأمير جابر أن يقنع بخطة كهذه، خطة رسمتها فتاة لا تعرف من الحرب إلا اسمها، وأنهم بهذا، أي بالذهاب إلى ذلك الوحش الكاسر وملاقاته، إنما يخاطرون بأرواحهم، وأنه إذا كان هناك شيء سينجحون في فعله، فهو أن يبقوا على قيد الحياة لأطول فترة ممكنة، وكان الثاني يرد عليه فيقول له، إنّه لمن الغباء محاولة اختراق أرض الرماد في وقت تبلغ فيه قوى الرجال هناك أشدها، و إنه لابد خطأ مميت بحيث إذا ما وقع فيه المرء مرة، فإنه لن يكون بمقدوره في أي يوم من الأيام أن يقع فيه مرة ثانية، وصاح فيهما القائد ليث، و إذ كان يبتسم بتخف، صاح بهما وفي صوته هدير رعد منفجر:

- "اصمتا أنتما الاثنان، واستمرا بركل حصانيكما... عليكم جميعا أن تعرفوا بأن الأمير جابر إذا كان سيذهب إلى الموت، فإنه لن يأخذ رجاله معه، عليكم أن تثقوا به أكثر من زوجاتكم، هل فهمتم؟"

وصاح الفرسان السبعة بصوت واحد:

- "أمرك يا سيدي"

"حينما نصل إلى هنالك، و إذا حدث واشتبكنا معهم، فعليكم أن تقاتلوا مثلما أنكم..."

وصاح الفرسان مرة أخرى بصوت كالموج أخفى ضجيج الحوافر تحته:

- "مثلما أننا ندافع عن زوجاتنا يا سيدي"

- "هكذا واصلوا الركض الآن ولا تتحدثوا، في الليل سيكون لديكم متسع من الوقت للحديث عن كيف ستنجحون في إنجاز المهمة"

بهذا، مضى شطر من الطريق الممتد، ومضت معه الشمس في صعودها المتأني، وحينما بلغ النهار آخره، كانت أعين الفريق قد وقعت على غابة أرض الرماد الكثيفة المتشابكة، من فوق تل مرتفع، خطوط أخرى كان عليهم قطعها، ومنحدرات مخفية بين الظلال الوارفة، وراحوا يسيرون عبرها في تتابع وسلاسة كقشات أخذتها مياه نهر هادئ، ونزل الخيالة بصمت

بعدها إلى مكان من الغابة حيث إن هي خيولهم صهلت، فإن صهيلها لن يصل إلى أسماع أعدائهم، ووقف القائد ليث ورجاله - بعد أن ربطوا أحصنتهم - خلف الأجمات يراقبون البوابة العظيمة.

خلال ساعتين أو أكثر، ظل المكان هادئا على طول الطريق المار أمام البوابة، لم يكن هناك من يأتي أو يرحل، ولم تكن هناك جماجم معلقة مثل المرة السابقة، كان الجداران المصنوعان من جذوع الأشجار عن يمين وشمال البوابة مسبوغان بقطران أسود، كانت الحشرات تتطاير أمامهما، وكانت تظهر من أعلاهما رؤوس مدببة ورماح حادة، كان المتربصون يتأملون المكان بعيون يقظة، وحينما راح الظلام يمتد مثل سديم حالك، فإن المكان من حولهم توحد وصار كتلة واحدة من السواد البارد، وصارت الأشجار تهمس من حولهم، بفروعها وأوراقها المتحركة، وطفق رجل من المتربصين يهرش عنقه بينا يقول بصوت هامس:

- "ألم يتأخروا عن الوصول يا سيدي؟"

وأجابه القائد ليث:

- "هل تظن هذا؟"

وقال الرجل:

- "إنني أسألك يا سيدي"

ورد القائد:

- "لا، لم يتأخروا... ما داموا لم يصلوا بعد، فإنهم لم يتأخروا"

ونطق واحد آخر:

- "سيدي، أظن أنني أسمع شيئا"

- "أين؟"

- "في الخلف هناك، أعتقد أن هنالك من يراقبنا"

- "ألا يمكن أن تكون حيوانات الغابة؟"

- "لا أعلم يا سيدي"

- "إنها حيوانات الغابة"

- "لابد من أنها هي يا سيدي ما دمت تقول هذا"

بهذا عادوا يصبون اهتمامهم على البوابة، ومضت ساعة أخرى من الانتظار والترقب، وحتى هذا الوقت، فإنهم لم يكونوا قد سحبوا سيوفهم من أغمادها، وراح القمر يبزغ من خلف سحابة جافة، نظر القائد ليث إلى السماء لبرهة، وسرق شروده صوت أزيز انزلاق خشب.

فُتحت البوابة أخيرا وخرج من خلفها خيالة بأزياء مرعبة، وانطلقوا يركضون في صياح وهمج، عبر الطريق الغربي حيث تقع مناطق صيدهم، اقترب القائد ليث ليحاول إلقاء نظرة، لكن البوابة سرعان ما أعيد غلقها، وعاد إلى مكانه بوجه متوعد، تفل على الأرض وصار يكز أسنانه، وفي اللحظة التالية سُمع نعيق غراب يأتي من الطريق الشرقية، وهنا صار يهتف في حماسة:

- "لقد عاد الأمير جابر".

وقال الأمير بصوت حذر:

- "لقد كنت أتفحص المكان من حولنا، هل خرجت فرقة الصيد يا ليث؟"

- "منذ لحظة"

- "رائع، يعني أنهم لن يعودوا قبل ثلاث ساعات أو أكثر... غير هذا؟"

- "لا شيء يا سيدي"

ومال الأمير جابر إلى موضع قريب من الطريق وصار يتفرس البوابة، وتبعه الآخرون من خلفه، ونطق يقول بعد برهة:

- "هل يعرف الجميع ما عليهم فعله؟"

وقال ليث:

- "لقد شرحت لرجالي ما ينبغي عليهم معرفته... ولابد وأنه لم يتغير أي شيء في الخطة، أليس كذلك".

وقال الأمير جابر:

- "لا، لم يتغير"هذا بينا ينظر إلى أعلى البوابة يفكر، ثم وقف وأضاف على قوله :"حتى اللحظة"

وعاد ليث يقول وقد أربكه كلام سيده:

- "ما الذي تقصده يا سيدي؟"

وقال الأمير جابر بينا يخرج نصلاه الحادان اللذان راح يصطع فيهما نور القمر:

- "لا داعي لاستدراجهم إلى الخارج... سأفتح البوابة بنفسي، لكن حينما تفتح، على الجميع أن يشرعوا في التحرك دون إبطاء أو خلل"

الآن آن لي أن أضع بعض النقاط على الأحرف، هي بضع كلمات فقط، لكن من المفترض أنها ستدق ذاكرة القارئ... في البداية، وبعد عودة الأمير جابر وخولة إلى هذا العالم الصغير المخزن وسط الصحراء بداخل فقاعة خفية، ومعرفته بحقيقة مرض وجهه، وأن علاجه يكمن في حشرة صغيرة لا تتوفر بالكم المطلوب إلا في أرض الرماد بسبب من توفر الظروف الملائمة

لتكاثرها، وتزامنا مع تذكره للوعد الذي قطعه للأميرة هند والمتمثل في استرداد زهرتها المسروقة، فإنّه كان لابد من التخطيط لأمر كهذا، على أن يتم التسلل إلى أرض الرماد وفق خطة مرسومة، ويكون ذلك بالتنسيق بين طرفين اثنين، في خلال هذا الوضع السائد، الوضع الذي تكون فيه الأعين مفتحة على اتساعها، وتكون القلوب في خفقانها تكاد تنفجر، والأصابع تشتد حول السيوف بقبضات خانقة، وإذ كان كل هذا، فإن الغراب وهو يحلق فوقهم، راح ينعق نعقات متفرقة، كأنما هي طبول حرب تقرع، وهنا وثب الأمير جابر على البوابة، نشب نصلاه الحادان في الشقوق التي عليها وراح يصعد نحو الأعلى.

مكث ليث ورجاله الستة خلف الأجمات ينتظرون أن تتحرك البوابة في صبر نافذ، وفي خلال هذا، كان يُسمع صوت أنين وصرخات مختنقة تأتي من خلف البوابة، كان الغراب يحط على رأس حاد أعلى البوابة كأنام يراقب ما يحدث خلفها، وحينما تحركت البوابة أخيرا محدثة صريرا ثقيلا، فإنّه وثب من مكانه وطار عاليا حتى اختلط بظلمة الليل الحالك، وتحرك ليث ومن معه، وحينما وصلوا عندها وكان شقها مُفتحا بما يكفي ليعبر أكثرهم ضخامة، فإنهم راحوا كعصابة يتسللون بتتابع، ورأوا خلف البوابة أربعة

رجال راقدين قد طلعت أنفاسهم، كانت دمائهم لا تزال تندس وتغرق دافئة وسط التربة، ومروا من خلالهم إلى منحدر محصور بين الصخور يطل على مدينة تشبه القبيلة العظيمة.

كانت مدينة أرض الرماد تقع على عمق تحت مستوى البوابة، ولذلك فإنه كان بمقدور المرء إن هو وقف هناك في الأعلى، ونظر معهم، أن يرى الشدق الأكبر منها، ويفهم أجزاء كثيرة من معالمها، كانت كأنها تغرق في سديم أسود، كان من الصعب عليهم رؤية أي شيء واضح من تلك المسافة، غير أن نور القمر وكرات اللهب المشتعلة هنا وهناك كانت تضيء رؤوس الأكواخ والخيام بما يكفي، كان ثمة روائح قوية تنبعث، كأنه الكبريت في الهواء يسد أنوفهم، رغم اللثم التي كانت على وجوههم، ومن غير أبطاء أكثر، راحوا يهبطون لأسفل بينا تتكسر أنفاسهم على الصخور التي ظلوا يستخْفون بها على طول المنحدر.

اختبأ الجميع خلف صخرة عظيمة سوداء تقف بجانب بوابة خشبية صغيرة تفضي إلى طرقات المدينة مباشرة، كانت البوابة مصنوعة من أعواد حطب وأسلاك مترابطة، وقد نصبت في أعلاها نار ملتهبة راح النسيم يتقاذفها

يمنة ويسرة، لم تكن مغلقة، لكن كان من المستحيل عبورها، ذلك أنه كان هناك أناس يتواجدون بعدها مباشرة، يتسامرون حول نار وتتطاير أحاديثهم وضحكاتهم من كل جانب، يرتدون ثيابا ثقيلة وتظهر أنفاسهم بيضاء نتنة، بدأ أنهم يقيمون احتفالا صغيرا بغير مأدبة، لكن كان هناك امرأة تسلخ جلد ضبع هزيل على لوح مرتفع أمام خيمتها، وظهر رجلان يحملان رمحين في يديهما يأتيان نحو البوابة، كانا يتحدثان بكلام مبهم، وتنحى الفريق خلف الصخرة، وراح الرجلان في صعودهما نحو البوابة الخارجية دون أن يلحظا وجودهم، بعد لحظة، ظهر رجل آخر، كان يأتي بخطى ثقيلة، كان هناك فأس يتدلى على ظهره، وكان في نظرته لمعان وشرر، وما إن عبر البوابة حتى خالجه شعور سيء، وقف ينظر حوله في ارتباك وحذر، ثم راح يشتم الهواء وكأنه أحس بوجود خطب ما في مكان قريب جدا.

سُحب الجسد بهدوء خلف الصخرة، ونزع ليث سيفه من بطن الرجل، وقال الأمير جابر بعدها:

- "الآن لنتحرك، اتبعوني، بهدوء وحذر"

وفي خفة شديدة ومهارة، راح الفريق يلتف حول الصخرة وغاب في الظلام نحو منحدر صخري يعج بالقذارة، كان هناك جلود حيوانات عفنة وعظام في

كل موضع، وراحوا ينزلون الصخور الزلقة نحو الأسفل، وأفضى بهم المسلك الذي خلقوه إلى ضفاف مستنقع أسود.

جثا الجميع على ركبهم بين الأجمات الشبه ميتة التي كانت تملأ ضفاف المستنقع، وراحوا يراقبون ثلاث رجال كانوا يستحمون تحت شجرة كبيرة مائلة الرأس قد نمت بيأس في وسطه، كانت ضحكاتهم تتعالى، وكانوا يمسكون أقداحا على شكل قرون حيوانات في أيديهم، كان يبدوا عليهم السكر، وراح الأمير جابر يقول في صوت خافت:

- "خلف هذا المستنقع، يوجد درب يمكننا من خلاله أن نصل إلى القصر مباشرة... علينا أن نلتف حوله أولا"ونظر إلى ليث بعدها :"ليث، هل تتذكر ما عليك فعله؟"

وهز ليث رأسه:

- "سنمضي الآن يا سدي؟"

- "القنطور لا يأتي إلى هنا، ولهذا فليس عليكم أن تقلقوا بشأنه"

كان هذا الحديث فقط، هو كل ما يتطلبه الأمر ليفهم رجلان مثل جابر وليث بعضهما، وانفصل الفريق إلى مجموعتان ومضت كل مجموعة في سيرها، راح الأمير جابر وخلفه محاربان اثنان يمشون في أناة بين الأجمات

المنخفضة، يلتفون حول المستنقع، حيث تكون الأرض من تحت أقدامهم أكثر صلابة، هذا بينا انطلق ليث ورجاله يسحبون أنفسهم في الماء مثل التماسيح المترصدة، فبرؤوسهم المطلة فقط، لم يكونوا يصدرون أي صوت يمكن سماعه، وحينما وصلوا إلى قطعة الأرض اليابسة التي تقف الشجرة عليها، فإنهم خرجوا أيضا بهدوء التماسيح وراحوا يتسلقون جذعها المتحجر في هدوء بالغ، كانت جماعة أرض الرماد تقف وسط الماء تحت الأفرع المائلة، ومن هناك، فإنّ ليث ورجاله كانوا يبدون كالثمار فوقهم، ثمار سامة وقاتلة، ولها سيوف وأعين، وبينا يتفرسونهم بأعين متلهفة، إذ بصوت يأتي من أقصى الطريق المؤدي إلى المستنقع، ظهر رجلان آخران يأتيان وكان يبدو عليهما العياء والتعب أيضا، كان يحملان رمحين في أيديهما، وسؤعان ما ألقيا بهما على الأرض ودلفا بخطوات قصيرة إلى المستنقع، وقابلهما الثلاثة الأولون بضحكات تنم عن غياب عقولهم، وقال واحد منهم بصوت متلون:

- "هلم إلينا، هلم"وأخرج من تحت إبطه قربة صغيرة :"لم يتبقى منه ما يكفيكما، لكنه سيفي بالغرض"

ورد أحد القادمين وفي صوته تعب واضح، ذلك بينا يتناول القربة في يده:

- "هل رأيتما لاحف وسيبا؟"
- "لم أرهما، لماذا، ألم يعودا من الحراسة بعد؟"
- "لا، مع أن الوقت تأخر"
- "ربما يكونان قد شعرا بال... أووع"

وفطس الرجل في لحظته، إذ شق عنقه نصل حاد نزل عليه من أعلى مثل برق قاتل، وفي لمح البصر، كانت قد هبطت أربعة نصال حادة، تشق الظلمة، وقضت عليهم جميعا في وقت واحد.

كان قد بقي من رجال ليث واحد يختبئ في أعلى الشجرة للمراقبة، وجعل من نزلوا يسحبون القتلى إلى مناطق أعمق وأغرقوهم في الماء بعدما دسوا حجارة ثقيلة في ثيابهم، وعادوا يزحفون نحو المنطقة اليابسة، وعلى نور القمر الذي توفر، راحوا يبحثون في جذع الشجرة بين الشقوق عن الحشرات الصغيرة، وأخرج ليث من ثنايا درعه جرابا قماشيا وجعل يملأه بحذر شديد بتلك الحشرات التي راحت تخرج غاضبة من كل فج في الشجرة.

في موضع آخر، كان الأمير جابر ومرافقاه يتسللون على أيديهم وأطراف أصابعهم يذهبون في خط متعرج خلف الأكواخ المتراصة على أطراف المدينة، كانوا يستعملون الأكواخ نفسها في التخفي، والخيام أيضا، والصخور والحشائش الطويلة، وجذوع الأشجار المحترقة، وكل ما كان بمقدورهم أن يتخفوا خلفه، هذا حتى وصلوا عند زريبة بها عدد من الخنازير البرية، كانت تمضغ طعامها في نهم، وكانت تصدر أصواتا أثناء ذلك، وكان ذلك يغطي على حركاتهم، ونطق أحد المحاربان يقول بصوت مضطرب:

- "أيها الأمير، هناك... أنظر"

وأخذ الأميرجابر ببصره إلى ركن من المدينة، إلى حيث يقف بناء مرتفع مغطى بقرميد محترق، كان يبدو كمخزن، وكان يقف قرابته ذلك الوحش الذي كانوا يتحرزون من رؤيته، كان يقف شامخا، ينظر بثبات إلى أعلى المنحدر، حيث تقف البوابة الخارجية، كانت عيناه الحيوانيتان تنظران بثقل وريبة، وراح يشتم الهواء بينا يحرك سيقانه الأربعة في مكان واحد، ولبث على تلك الحال لوقت قصير جدا، ثم تحرك نحو البناء وغاب في الظلمة كأنه جزء منها.

كان القصر يقف مبنيا على مرتفع ترابي في أقصى المدينة، يصعد من خلفه تل صخري مرتفع، يحده ويحيط به، ويلجمه ظلام امتزج بخيوط القمر الفضية وشعاع المشاعل المحترقة عند المدخل، وله طريقان يقودان إليه، عن يمين ويسار، إذ كان يرتفع عن كل القرية، في شكله، كان كبيت صغير يقف على سقف بيت آخر أكبر، وكان يقف أمامه رجلان قويا البنية يرتديان حلائس مكتنزة، تنزل على ظهر كل منهما ظفيرة طويلة، وينصبان رمحين ثقيلين أمامهما، زحف الثلاثة نحو منحدر ترابي يوصل إلى ظهر القصر مباشرة، وراحوا يصعدونه تشبثا، كان أحد الحارسين يهرش عنقه، وقال بعدها بصوت خشن:

- "أرغب في التبول، سأعود بعد لحظة"

وغادر المكان تاركا صاحبه لوحده، كان المتسللون الثلاثة يرقدون الآن على سقف القصر يطلون بأعينهم المتسللة، وقال الأمير جابر بصوت خافت:

- "قليلا بعد، ستخرج الفتيات بعد لحظة"

ومضى من الوقت دقيقة، وفتح باب القصر، وظهرت أربع فتيات تمشين في زينة ورحن يهبطن نحو الأسفل، وعاد الأمير جابر يقول بعدها:

- "ابقيا هنا، وإن حدث وطلبت المساعدة، فاقتلاهما ثم ادلفا إلى الداخل"

وهز المحاربان رأسيهما، وراح الأمير جابر ينزل من الخلف بهدوء بالغ، كان للجزء العلوي من القصر نوافذ أربعة من كل جانب، وكان من السهل فتحها، ودلف الأمير من اَخر واحدة منها.

في الداخل، كان الكوخ مبنيا من ركائز خشبية قوية، تحمل ثلاث طوابق، وتحت السقف الأعلى، كان بعضها يمر من طرف إلى طرف، ووقف الأمير جابر على إحداها مثل خفاش يقف بطريقة غريبة، يراقب رجلان كانا يلعبان على طاولة خشبية مربعة، لبضع لحظات فقط، ونزل عليهما مثل جاثوم قاتل.

سحب نصليه من عنقيهما، وترك برج المراقبة لينزل الأدراج بهدوء نحو الأسفل، كقاتل متسلل، راح يتحرك بخطوات قصيرة، لا تُسمع، وحينما انتهى إلى السقف الأخير فإنه لبث ينظر من خلال شق بين الأخشاب المتراصة، لم يكن هناك أحد في الأسفل، لكن خرجت فتاة من غرفة قريبة، كانت شبه عارية، لكنها حملت طست شراب وعادت إلى الداخل، وانتقل الأمير جابر مباشرة إلى موضع فوق تلك الغرفة، لحظات فقط، وتكسر

السقف من فوق الأمير اَرون الذي كان يرقد في حضن الفتاة التي خرجت قبل لحظة، وسرعان ما خبا صوت غنائها وصار إلى صرخة مخنوقة.

رهينة

الآن كانت أشلاء السقف منتشرة في أرجاء الغرفة، وعلى الفرش الواثر، وكان الأمير جابر يقف محكما قبضته حول عنق الفتاة بينا يغرز نصله الحاد في وسادة رطبة بعد أن تمكن الأمير اَرون من تفاديها في اَخر لحظة، وكان الأمير اَرون قد نشب أطرافه الأربعة في الأرض عند ركن قصي من الغرفة، ينظر مثل كائن مفترس، بعينين مرتعشتين، وفاه فاغر، كان نصف جسده العلوي عارٍ تماما، وكان بهروبه السريع ذلك، قد نجا من موت محتم، والآن اعتدل واقفا، ومجردا من سلاحه، إذ كانت عصاه في الطرف الآخر من الغرفة، نطق يقول بتحدٍ:

- "ما الذي تظن نفسك تفعله؟"

وقال الأمير جابر:

- "مرة أخرى، أنقذت نفسك"

وقال الأمير اَرون بابتسامة خبيثة:

- "هل حقا تتوق لقتلي كل هذا التوق؟"

ودفع الأمير جابر الفتاة بيده القوية نحو الجدار فسقطت فاقدة الوعي بلا حركة، وقال وفي عينيه جحيم غضب:

- "أين هي زهرة أرض الماء؟"

ورد الأمير اَرون في تعنّت:

- "وهل أتيت لقتلي أم للبحث عن الزهرة؟"

- "يسرني القيام بكليهما"

- "كليهما؟ بالطبع، فلن يكون بمقدورك أن تفعل شيئا واحدا"

- ...

- "أي جرأة لديك لتأتي بنفسك إلى هنا، إنني أحيّي شجاعتك، فما كنت أبدا لأفكر بدخول أرضك، كما تعلم"

- "أين هي الزهرة؟"

- "الزهرة! الزهرة!... أيها اللعين!! أمازلت تسأل عن الزهرة؟"

الآن وفي لمح البصر، ولأنه لم يكن هناك وقت لإضاعته، فإنّ الأمير جابر وثب نحو الأمير اَرون في سرعة تفوق قدرة أي بشر عادي، وبشكل مماثل، فإن الأمير اَرون بدوره تلقف الضربة بين يديه العاريتين الصلبتين مثل مخلب، فما كان من الأمير جابر إلا أن لوح بيده الأخرى نحو وجهه،

لكن الأمير اَرون أفلت يديه ورقد على الأرض بشكل معاكس، كأن أطرافه دارت خلف ظهره، وصار ينظر من أسفل، وبرأسه الذي بدا مقلوبا، راح يصعد الجدار مثل عنكبوت سريع الحركة، حتى صار على السقف ينظر من أعلى، وظن الأمير جابر أنه تفطن لما كان ينوى فعله، فنظر نحو العصا التي كانت في الزاوية، لكن الأمير اَرون وثب نحوه مباشرة، وتلقف الأمير جابر تلك الصدمة سريعا فغرز نصليه في بطنه فشخر الأمير اَرون دون أن يصرخ، ثم إذ به يرفع ذراعيه فيطوق بهما خصر الأمير جابر، وصار يقول بصوت مبحوح كأن رملا في حلقه:

- "إنه ليس من السهل قتل الأمراء كما تعلم"

حاول الأمير جابر أن يخلص نفسه، غير أن ذراعي الأمير اَرون كانتا تلتفان حوله كعروق شجرة قديمة:

- "لقد أتيت إلى حتفك، كم كنت أتوق إلى هذه اللحظة"

قال الأمير اَرون وفي عينيه حقد ظاهر، كانت أنفاسه تطلع نتنة، وكان جسده الهزيل يتصلب أكثر فأكثر، وأحس الأمير جابر بأن أضلاعه تسُحق:

- "أيها ال..."

- "هذه نهايتك، لعلك لم تعرفني جيدا، لست بالرجل الذي يموت بطعنة في بطنه، هأهأهأهأ"

وهنا ذاق الأمير جابر به ذرعا، وفي ثورة غضبه، إذ به ينطحه برأسه، كانت ضربة قوية جدا، بدا بعدها أن عنق الأمير اَرون قد كُسرت، لكنّ رأسه مال نحو ظهره بطريقة غريبة، واستمر ذلك لبضعة ثوان، ثم رفع رأسه فظهر اثر الضربة على جبينه، كان هناك خيط دم ينزل على وجهه، وراح ينادي رجاله:

- "أيها اللعينان... أيها اللعينان تعالى إلى هنا"

غير أنّ من ظهر من الباب كان شيئا آخر، لم يكونا رجلين عظيما الهيئة في أزياء ثقيلة ورماح طويلة، لقد كانا محاربان من أرض الغابة يحملان سيفان يتقاطر الدم منهما، نظر إليهما الأمير اَرون فركبه غضب عارم، وقال الأمير جابر في صوت المنتصر:

- "إلى متى ستظل ملتصقا بي هكذا؟"

بهذا، انقلب الأمر على الأمير اَرون الذي ظن بفعلته تلك أن يُثبّت الأمير جابر حتى تأتيه المعونة من رجاله، فراح يتنفس في عنف وحشرجة، ثم وفي حركة سريعة وعنيفة، أرخى ذراعيه وحاول أن يثب بعيدا عن الأمير جابر، فعل ذلك متناسيا وجود نصلان حادان كانا يخترقان بطنه.

إذن فقد صار الأمير اَرون هو الرهينة في أرضه، وفي قصره، وفي غرفة نومه، ذلك لما نزع الأمير جابر نصليه بقوة جعلته يلفظ دما من فمه ليجثو بعد ذلك على أطرافه الأربعة أمام الأمير جابر، لكنّ الأخير لم يمهله وقتا ليستعيد قوته فرفعه عن الأرض بقبضة قوية وثبت ذبابة نصلح الحاد على عنقه، وبهذا لم يعد بمقدور الأمير اَرون أن يبدي أصغر مقاومة، لأن ذلك لم يكن ليؤدي إلى شيء سوى لحز رقبته الجافة.

راحت محاربا أرض الغابة يبحثان هنا وهناك في أرجاء القصر، امتثالا لأمر الأمير جابر، كانا ينتقلان صعودا بين الغرف، يفتحان كل صندوق ويرفعان كل فرش ويقطعان كل إزار يجدانه معلقا على جدار أمامهما، استمر بحثهما لبضع دقائق، وجرى أثناء ذلك حوار بين الأميرين في الأسفل، كان الأمير جابر يلوي ذراع الأمير اَرون في هذا الوقت خلف ظهره بينا يسأله.

- "أعطني سببا واحدا يمنعني من قتلك الآن؟"

وقال الأمير اَرون بصوت مختنق:

- "سأعطيك حالما تشرع في قتلي"

وهنا ضغط الأمير جابر بنصله الحاد على عنق الأمير اَرون حتى جرحه وسالت على الأرض قطرات من دمه:

- "هل كنت تعرف أنه لا يزال بالإمكان تعميد أمراء جدد حتى بعد رحيل الساحر؟"

وسعل اَرون نصف سعلة وراح يقول بغضب:

- "تعميد ماذا"

- "تعميد الأمراء... لا تتظاهر بأنك لا تعلم"

- "لا أعلم عما تتحدث... أولم يخبرنا الساحر أن ذلك قد انتهى إلى الأبد"

- "من الذي دل أرض الرمال عن الأمر إذن؟"

- "من... تسألني من؟... لست أنا، ثم إنني لا أفهم ما الذي تبربر بشأنه؟"

وضغط الأمير جابر بنصله على عنق الأمير اَرون مرة أخرى، وسعل الأمير اَرون سعالا طويلا وصار بعدها يتنفس بصعوبة:

- "أقسم... إنني لا أعلم عما تتحدث"

- "هو شهاب إذن!!... ألم تكونا على وفاق في الفترة الماضية فكيف لم يطلعك على سر كهذا؟"

- "وفاق؟ وفاق؟... ذلك الملعون، لقد قام بخداع رجالي"

- "أجل، وهذا أيضا"

- "أنت... كيف تعرف هذا، من أين عرفتما أنتما الاثنان بأمر التعميد بعد موت الساحر؟"

- "لقد حصلت أرض الرمال على أمير جديد لها"

الآن تحركت عينا الأمير اَرون المفتحتان نحو الجدار باضطراب لحظة سماعه هذا، وصار كأنما قد تفطن لأمر ما، وقال في شخير يكاد لا يُفهم:

- "كنت أعرف أنهما يعملان من وراء ظهري"

- "أتعني شهاب وأكثم؟"

- "شهاب، نعم... لكن الآخر شخص لا تعرفه"

قال ذلك وحاول أن يرفع عينيه ليرى قناع الأمير جابر:

- "ما رأيك الآن أن نعقد صفقة... نحن الاثنان فقط"

وضغط الأمير جابر بنصله على العنق المجروحة كرة ثالثة.

- "تو... قف... لدي شيء يهمك"

لاحظ الأمير جابر تذبذبا غريبا في صوت الأمير اَرون، فقد بدت نبرة كلامه أكثر جدية، وأقرب إلى الحقيقة، ولذلك أرخى ذراعه قليلا وصار يخاطبه:

- "هات ما عندك قبل أن ينفد صبري"

ظهر المحاربان عند الباب في هذه اللحظة، كانا يبدوان في مظهر يائس، وقال أحدهما بأسف:

- "لم نعثر عليها يا سيدي"

وتدخل الأمير اَرون لما استشعر الغضب في عيني الأمير جابر:

- "سأعطيك إياها... الزهرة، إن تركتني وشأني، وأكثر من هذا، سأخبرك بشيء لطالما كنت تطمح لسماعه"

أثار كلام الأمير اَرون اهتمام الأمير جابر، وجعل يطالعه وقد خالجه توتر لم يدري كنهه، فكأنما أدرك وبشكل مسبق، بأن الحديث الذي يسكن جوف الأمير اَرون، سوف لن يكون إلا قاسما لذاته.

عاد الأمير اَرون يقول مرة أخرى:

- "ليكن عهد الأمراء بيننا، سأتركك ترحل، دون أن يعترض طريقك أحد... سأعطيك الزهرة، وشيئا آخر... فكر جيدا، إن قتلي لا يساوي سرا يخص نكبتك الكبرى، أليس كذلك؟"

- "أيها الحقير ما الذي في جعبتك؟"

- "أقول الحقيقة، وبشرف الأمراء، أعقد معك هذه الصفقة، روحي مقابل الإجابة التي ظللت تطاردها لأكثر من أربع سنوات كاملة".

إيضاح

كان الأمير اَرون يقف على قدميه في الطرف الأدنى من الغرفة والدماء تنزف من عنقه، فيما وقف الأمير جابر عند الباب، وأما الفتاتان فكانتا عند النافذة تسدانها، بينا تمسك إحداهما بالزهرة الزجاجية، وكان الأمير اَرون قد دلهم على مكانها قبل لحظة، ثم انطلق يقول في خبث، بينا يتحسس الجرح على رقبته بأصابع يده الجافة الطويلة، راح يقول بصوت يشبه فحيح الأفعى:

- "اسمعني يا صاحب الوجه الخشبي، لا تأتي الأشياء من تلقاء نفسها... لقد أعطيت أمرا بقتل والديك أليس كذلك... لمت نفسك كل هذا الوقت عبثا، دون أن تدرك أن ذلك لم يكن ذنبك... خذوهم وأدفئوهم... هذا ما قلته، لم يكن بمقدورك أن تقول شيئا آخر غير هذا، هل تدري لماذا؟ لأن شهاب أجبرك على قولها... لقد كان حاضرا هناك بنفسه، متخفيا بين رجال أكثم، ولقد جعلك تلفظ تلك الكلمات رغما عنك، باستعمال تعويذة، إنّ تلك الورقة التي بحوزته، والتي أخذها من رجالي بحيلته القذرة كان بمقدورها أن تفعل شيئا كهذا"

كان الأمير جابر وهو يسمع كلام الأمير اَرون، يبدو هادئا من الخارج، لكن في داخله، كانت نار حارقة تأكل قلبه، ونطق في آخر الأمر بصوت ممتكسر:

- "هل قلت أنها نفس الورقة التي سرقها من رجالك؟"

- "أجل... وأظنك ارتحت قليلا هكذا... على كلٍ، لقد كان أمرا فضيعا، وسأكون كاذبا إن أخبرتك أنني لا أتفهم الرغبة القوية التي هاجت في نفسك الآن لقتله، لكن، لكن..."

- "ما الشيء الآخر الذي كنت ستقوله؟"

- "ها... أجل، ذلك... إنه بخصوص حبيبتك السابقة، شقيقة أكثم، ألم تكتشف مؤخرا أنها كانت تتجسس عليك وعلى هند؟ إن الأمر نفسه تكرر معها، لقد ظلت تعمل تحت إمرته، بغير إرادتها... أولستُ أُعرف بالخبيث المتسخ؟ انظر الآن إلى الخبيث النظيف ذو الوجه الأبيض... لقد تمكن من خداعكم جميعا، ثلاثتكم... وزرع العداوة بينكم، وإليك الآن ما حدث... لقد سرق الورقة من رجالي أولا، ثم استعملها في السيطرة على حبيبتك وجعل منها جاسوسة تعمل لصالحه، فهي لم تكن تعمل أبدا لصالح شقيقها... لكن حينما اكتشفت هند أمرها قامت بقتلها مباشرة، وحينما ظن

أكثم أنك أنت من قتلتها، قرر أن يأخذ بانتقامه... حتى هذا اللحظة، كان شهاب يراقب الأحداث بصمت، لكن بعد هذا، كان عليه أن يتدخل ويضع بصمته في الوسط، لقد كانت فكرة إحضار جنود من تلك القبيلة خاصة، من بين ما اقترحه على أكثم... ثم كان عليه أن يستعمل تعويذته عليك، طلب منه أكثم أن يعيره الورقة لينفذ الأمر بنفسه، لكن شهاب رفض، لم يكن ليثق به إلى هذا الحد، فالورقة خطيرة، وتغري حاملها، حتى أنّ..."

- "أكمل..."

- "إن خروج والديك من أرض الماء في تلك الليلة لم يكن محض مصادفة... لقد وصلتهما رسالة مفادها أن ابنهما قد أصابه مرض خطير بشكل مفاجئ، أي أنه تم استدراجهما للأمر منذ البداية"

ضاقت عينا الأمير جابر خلف القناع ومالتا لأسفل، وظلت أنفاسه تضيق وتضطرب نبضات قلبه، وعاد الأمير اَرون يقول بعدها:

- "أتعرف لماذا فعل كل هذا، أراد منكم أن تنشغلوا ببعضكم البعض وأن تتقاتلوا، وقد نجح قليلا في سعيه"

ونطق الأمير جابر فجأة يصيح بصوت مرتفع:

- "شهاب ليس رجلا خالي الوفاض كي يتفرغ لما ذكرته... فلابد من وجود أمر أعظم لا يزال في جعبتك"

- "ها، أنت محق تماما، لكن هذا شيء ليس في صالحي أن تعلمه الآن، فاعذرني يا صديقي"

- "تحدث الآن هيا"

- ...

- "اَرون"

- "أجل، صِح، صِح هكذا... حتى يظن حيواني الأليف أنني في خطر، ثم سيكون عليك بعدها أن تفكر في طريقة مناسبة لتهدأته"

النور

خرجت المحاربان أولا، وراحا يمران عبر جثتي الحارسان اللتان كانتا ترقدان جنب بعضهما، في الأسفل عند الهضبة التي يقف القصر عليها، كان هناك عدد من الناس قد تجمهروا في جماعة كبيرة، خرج الأميران جنب بعضهما، ونظرا الأمير اَرون عند قدميه إلى محاربيه الميتين وقال بخزي ظاهر:

- "لقد كانا من أفضل المحاربين لدي، يا للخسارة"

الآن راح الجمهور الغاضب في الأسفل يزمجر ويزحف إلى الخلف بخطوات قصيرة، كان الناس قد فتحوا للأمير جابر ورفيقيه طريقا، كانت العيون من حولهم تحدجهم بشراسة، وكانت أيدي المسلحين منهم مملوءة، وحين وصل الأمير اَرون وضيوفه الثلاثة إلى ساحة القبيلة، فإنه توقف فجأة وراح يقول بخبث تجلى واضحا في صوته ونظراته:

- "لحظة... مهلا، مهلا يا أصدقائي"

وتوقف الأمير جابر والفتاتان ونظروا إليه وقد رابهم شكل نظراته التي كانت توحي بأنه يفكر في شيء سيء:

- "لن أدعك ترحل..."

قال يخاطب الأمير جابر دون أن ينظر نحوه، لكن كانت عيناه مصوبتان نحو الأرض في غير مكان واضح:

- "اعذرني يا صديقي"

والآن هاج الناس بعد هذا وراحوا يصيحون جميعا بصوت واحد، وكان هذا إلا تعبيرا عن فرحتهم بالقرار السديد الذي اتخذه زعيمهم، ثم إنهم جميعا - المسلحين منهم وحتى اللذين كانت أيديهم فارغة - قد سددوا نظراتهم الشرسة نحو الوجبات الثلاثة، التي لم يكن في القبيلة أشهى أبدا منها.

- "كما قلت، عليك أن تعذرني يا صديقي، إذ يتحتم عليّ أن أفض العهد الذي قطعته قبل دقائق، لكن ينبغي علي أن أفعل شيئا لأنال حظوة لدى السيد... إن شهاب صنع طريقه، وعلي أن أتصرف أيضا"

وهنا نطق الأمير جابر بغضب:

- "أيها المعتوه القذر، ما الذي تقوله؟"

- "أقول أنه ينبغي علي أن أبدأ في حفر طريقي الخاص أيضا... بالطبع أنت لا تعرف السيد، و إلا لعذرتني... لكن يؤسفني إخبارك بأنك لن تحظى بهذا الشرف، أعني شرف معرفته"

قال الأمير اَرون ورفع يده عاليا، ولم تمضي غير لحظة، حتى برز من بين الحشد عدد من المحاربين الأشداء، فطوقوا الأمير جابر ورفيقيه وأشهروا أسلحتهم السامة في وجوههم.

اقترب الثلاثة من بعضهم، وصار كل واحد منهم يلصق ظهره بالآخران حتى يحموا بعضهم، برزت عينا الأمير اَرون فضيتان وسط الظلمة، كانت ملامحه تنضح مكرا، لكن فجأة، وكان يوشك أن يأمر رجاله بالتحرك، أتى ضجيج من ناحية كوخ كان يقف خلفهم، وراح ضباب يتحرك من تلك الجهة، ثم صعد صوت يشبه شخير ثور هائج، وظهر القنطور يأتي من بين السديم يمشي يبدل خطواته الأربعة في زهو ظاهر، وابتعد الناس من طريقه، وصار في الجمهرة باب يقود صوب الرهائن مباشرة، كانت عيناه تهتزان تنظران في ثبات شديد، ويخرج من بين منخاريه بخار دافئ، وحتى في ملامح مخلوق مثله، كان هناك غضب يتجلى، ومشى حتى وصل عندهم، وضرب رمحه في التراب حتى اهتزت الأرض من تحتهم، ونطق الأمير اَرون حينها قائلا:

- "لابد وأن رجلا مثلك... أعني رجلا عاقلا مثلك، لن يتسبب في قتل فتاتين جميلتين كهاتين بسبب تهوره الزائد أليس كذلك!! إنك تعرف جيدا أنك و إن استطعت الهرب، فإنهما لن تفلحا في ذلك"

ظل الأمير جابر في كامل هدوءه، ولم يبدي أي رد فعل يذكر، إنما كان يقف وذراعاه لأسفل، يتأمل القنطور بحذر، أما المحاربان فكانا يشهران سيفيهما في وجوه المحاربين اللذين حولهم، استمر الوضع لبضع لحظات فقط، ثم أتت جلبة أخرى من ناحية المستنقع، نظر القنطور بعينيه الحيوانيتان وشخر بصوت مرتفع، كان هناك خمسة محاربين بملابس مختلفة عن أهل ارض الرماد يشهرون سيوفهم ويأتون بظهرون، وكان يدفعهم - من الجهة المقابلة - عدد من محاربي أرض الرماد وهم يضربون فؤوسهم في دروعهم الخشبية بينا يصيحون ويزغرون بصوت مرتفع.

تراجع الرجال الخمسة حتى اندمجوا مع الرهائن الثلاثة، وقال القائد ليث وكان ألصق كتفه بظهر الأمير جابر:

- "آسف يا سيدي، لقد جذبتهم رائحة دماء أصحابهم"

وقال الأمير جابر في نبرة من لا يحير للوضع أي قلق:

- "هل وجدتها؟"

- "أجل يا سيدي"

كان يقصد تلك الحشرات الصغيرة التي تسبب في مرضه.

ونطق الأمير اَرون عند هذا وكان قد اشتد به غضب عارم لما رأى كل هذا العدد من الغرباء في عمق داره:

- "ما الذي يحدث هنا، كيف دخل كل هاؤلاء إلى المدينة؟"

وقال واحد من رجاله كان قد توقف عن ضرب درعه منذ لحظة:

- "سيدي، لقد قتلوا خمسة من رجالنا عند المستنقع"

بدأ جسد الأمير اَرون يرتعش، ودارت أصابع يده حول عصاه بقوة أكبر، ثم فرقع عنقه وقال يعض على أسنانه:

- "كنت سأبقيك أسيرا يا جابر... مع أنني كنت سأكره نفسي لو فعلت ذلك، أتعرف لماذا... لأنني كنت سأبدو لطيفا لأول مرة، والآن... والآن"

ثم اتجه بوجهه المخيف نحو القنطور وصار يأمره بصوت خبيث تعلوه شراسة:

- "اقتلهم جميعا، جميعا، لا تبقي على أحد منهم، وأنتم، اهجموا عليهم أيها الحمقى عديمي الفائدة"

بهذا، طلعت صيحات مقاتلي أرض الرماد من الأرض نحو السماء كرعد يعكس اتجهاه، وراحوا يهاجمون أعدائهم بحماس مرتفع، وتكاتف الدخلاء وصاروا كتلة واحدة، واستماتوا في الدفاع عن أنفسهم، لكن بعد مرور أكثر من خمسة دقائق، لم يكن القنطور قد تدخل، بل كان يقف هناك في مكانه الأول، ينظر نحو الأعلى، حيث تقف البوابة الخارجية، فيما كان الأمير اَرون يقف بجانبه يتأمل الوضع بوجه متجهم، كان يشعر بوهن قوي بسبب الدماء التي سالت من عنقه، ولذلك لم يكن بمقدوره أن يتدخل بنفسه، كان يرى عددا من رجاله يسقطون أمامه، وأخذ يكز على أسنانه... فجأة، وفي غمرة غضبه، ومن وسط الضباب الذي كان ينيره لهب المشاعل في أعلى المنحدر، ظهر شخص غريب يقف هناك لوحده، كان يبدو كرجل مرهق راح يسترجع أنفاسه بصعوبة، ظل صدره يكبر ويصغر مع كل نفخة، كان يمسك بحزامي حقيبة على ظهره، وإنه بدا لوهلة، بوقفته تلك، وقفة المتعب الواثق، كالبطل المغيث الذي جاء لينقذ شيئا في آخر لحظة، وراح ينزل المنحدر بينا العيون تتبعه، وحينما قصرت المسافة وصار يقف أمامهم، فإن ندفات شعره الرمادية بانت للعيان بشكل واضح، كان تقاسيم وجهه تبدو كجلد ميت، وحينها نطق الأمير جابر بدهشة:

- "عم حيدر، ما الذي تفعله هنا؟"

ومشى العجوز دون أن يجيبه، بعينين ذابلتين ضيقتين، راح يمرّ بين الجمع حتى وقف على بعد أربعة أمتار فقط من الوحش ذي القوائم الأربع، ونزع حقيبته من على ظهره ووضعها أرضا، وقال بعدها بصوت رث ماكر:

- "لقد أتيت لتقديم المساعدة، ولسوف أقلب موازين هذه المعركة ما دمت أعرف سر هذا المخلوق البشع، لا تخف يا سيدي، إن لدي سلاحي، أعني... إنّ الحيوانات تخيف بعضهما، ولقد صرت على اطلاع بما من شأنه أن يبقي هذا الوحش ضعيفا لا يجرؤ على الحركة"

قال ذلك بينا يحاول فتح خيوط حقيبته، وبينا تطالعه الأعين دون أن يفهم أصحابها شيئا، كان يُسمع صوت عنزة يأتي، وحينما تمكن العجوز أخيرا من فتح الحقيبة، فإنه برز منها رأس عنزة سوداء صغيرة راحت تطل مثل مخلوق وديع يخرج لتوه من بيضته.

بصعوبة، تمكنت العنزة من الوقوف على أطرافها الأربعة القصيرة، وقفت تتأمل العشب الميت، وتشتم الأرض السامة، للحظات فقط، ثم راحت تخطو نحو القنطور وهي لا تدري نحو أي شيء كانت تخطو، حينما وصلت إليه،

كان أنفها الصغير لا يصل إلى ركبته، ورفعت رأسها لتنظر نحوه، وكان ما رأته شيئا يبعث على الهلع، ذلك أنها وفي لحظة، كان ذيلها الصغير المرتعش يختفي خلف خيمة قريبة، إنها انطلقت تركض وثغاء خوف يرتفع منها، ونظر القنطور إلى العجوز الذي خُذل لتوه، نظر إليه كأنما ينتظر منه جوابا لما وقع، غير أنه وفي غمرة ذلك الجو الغريب الذي أحاط بهم، وفي منتصف ذلك السكوت البارع، إذ بشيء آخر يظهر في الأعلى، لم يكن يبدو كعجوز في السبعين من عمره، ولا قريبا من ذلك، لقد كان شيئا هذه المرة بحجم أضخم، وراح ينزل المنحدر نحوهم، وراحت عينا القنطور تنزلان معه، وكان ذلك هو ما منعه من التحرك للمهاجمة، إذ أنه ومنذ البداية، ظل يشعر بوجود شيء آخر أخطر، في اعتقاده أنه كان أكثر شرا، وأكثر أهمية من حفنة رجال كان يمكن تقطيعهم جميعا بضربة واحدة من رمحه.

****

توقف القتال ونظر الجميع نحو ذلك الشيء القادم، كان مكعبا معدنيا كبير الحجم، يسير على عجلات أربع، كان فارغا من الداخل، وكان يهبط

بهدوء نحوهم، وتنحى الجميع من طريقه فسار حتى توقف أمام القنطور مباشرة، ثم وإذ به فجأة، تنطلق منه أنوار ساطعة، كانت من القوة بحيث أنارت ساحة القرية مثلما لم يسبق لها من قبل أن أنيرت، فحتى نور الشمس في أشد أيامها صطوعا لم يكن بمقدوره اختراق ذلك السديم الذي يغلف أرض الرماد ويبقيها مظلمة من الداخل، وصل النور إلى المرتفع الصخري الذي يقف خلف القصر شامخا، وبذلك أضاء هذا النور عالما ظل منطفئا لمئات من السنين خلت.

الآن كان القنطور قد وثب على قائمتيه الخلفيتين لمّا ضرب نور السيارة وجهه وصار يخور بصوت مرتفع، فقد عميت عيناه تماما عن الرؤية، كان النور قد وصل أيضا إلى أعين الرجال الواقفين حوله، وصار كل واحد منهم يمسك وجهه ويصيح من الألم، وبعضهم سقط أرضا، وارتفعت الأصوات من كل جانب، ووقف الأمير اَرون ينظر بغيظ وقد اشتد غضبه، كان لا يدري ما يفعل، وتصلب جسده، ثم نزل من المكعب صوت نسائي راح يقول في قلق:

- "هل أنتم بخير؟ آمل أننا لم نتأخر"

كانت تلك الأميرة هند، ثم ظهرت خولة ورشا بجانبها، وقالت خولة بصوت متعجل:

- "سيستهلك هذا الكثير من الطاقة، ولا أعتقد أن البطارية ستدوم لوقت أطول، لذلك علينا أن نسرع فنغادر هذا المكان فورا"

وأعاد الأمير جابر نصليه إلى مكانيهما، ونظر إلى الوحش الذي تمنى دوما مقابلته، كان لا يزال يتخبط في وجعه، يحاول أن يتخلص من العمى الذي أصابه، لكن صيحات رجال أرض الرماد وبتزايدها، كانت كأنها ستخلصه من ضعفه في أي لحظة، فنقل الأمير جابر نظرته نحو الأمير اَرون ورأى حقد عظيما يغطي وجهه مثل القناع البارع، ضاقت عينا الأمير اَرون كثيرا، وحدق الاثنان في بعضهما طويلا، إلى أن ارتد الأمير جابر عائدا وأمر من معه بأن يتبعوه بسرعة.

أثناء صعودهم المنحدر، راح ضوء السيارة يخبو شيئا فشيئا، ثم انطفأ تماما بعد ذلك، وبدأ محاربوا أرض الرماد يفتحون أعينهم ويستعيدون قواهم تدريجيا، وتحرر القنطور تماما في تلك اللحظة، ونظر نحو الهاربين اللذين كانوا عند قمة المنحدر قريبين من البوابة، زمجر بغضب، وشخر شخرة تردد صداها في ارجاء القرية الكبيرة، ثم ارتد على عقبيه وغاب في

الضباب المعتم، وبينا ظل الأمير اَرون واقفا هناك يشاهد هذه المطاردة، فإنه أيضا كان يرى سهاما تنزل من أعلى المنحدر تساقط على أجساد رجاله.

تحت الظلام الحالك، وعلى العشب البارد في عمق الغابة، قرفص محاربوا أرض الغابة ورؤوسهم منكسة بين الركب، كانوا يلهثون بتعب، لكن هواء الفجر كان باردا ينعش الأفئدة، وقد أفادهم ذلك جدا، والآن على بعد خمسين مترا، وعند حجر كبير ناتئ، جلس العجوز لوحده يضم ركبتيه إلى صدره في كرب، كان يتحدث بكلام مبهم، وظل يهتز ككرسي خشبي في مكانه، راح يتحدث إلى نفسه، لقد كنت على ثقة، كنت متأكدا، كنت متأكدا من ذلك، ظل يتلو هذه الكلمات منذ وصولهم إلى هذه البقعة، ولم يكن هناك من تقدم إليه ليسأله عن حاله،و في موضع قريب أيضا، كان هناك حديث يجري بين الأمير جابر والأميرة هند، كانت هند تمسك زهرتها الزجاجية بين يدها، استمر الحديث لبضع دقائق أخرى، ثم حين انتهى، فإن ثوب الأميرة هند تحرك فيما يشبه أنها قامت بعناق الأمير جابر.

سم

انطلقت الأميرة هند على ظهر فرسها السريعة لتعود أدراجها نحو أرض الماء والتفت الأمير جابر نحو أصحابه بعد ذلك فوجد ليث وخولة ينتظرانه على مقربة، ظهر في وجه خولة امتعاض لم تستطع إخفائه، وأشاحت ببصرها عن الأمير جابر، فيما نطق القائد ليث يقول حينها:

- "أرجو ألا يعترضوا طريقهم"

وقال الأمير جابر:

- "لا، لن يفعلوا... رجال اَرون لن يخرجوا من أرضهم قبل الغد، لديهم موتى، وسيرتبون احتفالا لحرقهم"

ونظر إلى خولة بعدها:

- "أنت، ما بك؟"

ورفعت خولة بصرها نحوه، وحينما راحت حدقتي عيناها تهتزان لفرط الشعور الممزوج بالغيرة والغضب اللذان هاجا في صدرها بسبب من عناق الأميرة هند له قبل لحظة، فإن صوت ليث أتى لينقذها فجأة، و إنه قال وهو يخرج جرابا قماشيا من وراء ظهره بينا يمده للأمير جابر:

- "هذه هي يا سيدي، الحشرة... آمل أن تكون الكمية كافية"

تناول الأمير جابر الجراب في يده:

- "ما بها يدك يا ليث، أراها ترتعش"

وأسرع القائد ليث يضع يده على غمد سيفه المعلق على خصره:

- "لا، ليس حقا يا سيدي... هو من أثر القتال فقط، أظنني صددت بعض الضربات القوية بتهور".

هذا، ومشى الثلاثة عائدين أدراجهم، نحو المحاربين المستندين على جذوع الأشجار بظهورهم، واللذين كان بعضهم توشك أن تغلبه عيناه من فرط التعب، لكن خولة ذهبت بعد ذلك مباشرة عند العجوز لتحثه على مرافقتهم، فيما صعد القائد ليث على ظهر حصانه وصاح في الرجال بصوت عالٍ:

- "إلى الخيول هيا، سوف نمضي الآن حالا".

انطلق الركب مندفعا في غياهب الغابات المظلمة، بسرعة الريح السائر في جوف الصبح البارد، كان الليل في آخره، ثم لم يمض وقت حتى راحت شمس النهار تطلع وتضع خطوطها الحمراء على أطر الجبال النائمة، في أرض بعيدة، وبين أكتاف التلال المتعانقة، كان هناك رفوف من ظلال

وارفة، وكانت الخيول في ركضها، تتسابق وتتلاحق، وكان القائد ليث - ومنذ انطلاقهم - كان يأخذ مكانه خلف الأمير جابر مباشرة، ثم إنه في هذا الموضع، عند منعرج ضيق وسط هذه الغابة الصغيرة المجهولة، إذ به يشعر بألم فضيع في جسمه، و إذ بحركة حصانه تصير أثقل، بينا راح هو يميل إلى جانب، وبينا يتجاوزه بعض رجاله، رآه اللذين في الخلف وهو يتوقف، ثم وهو يميل بكامله على طرف الطريق فوق العشب الأخضر، مال على الأرض ككيس تقطعت عنه الحبال التي كانت تشده.

صار القائد ليث - في اتكاءه ذاك على جذع الشجرة - ينزع مثلما أن ذراعه تُقطع، وراحت خيوط عرق تسيل على جبينه، بسبب من الحمى الشديدة التي سارت في كامل جسده، وجلس الأمير جابر أمامه يتفحص يده، كان هناك بثرة على الأصبع الأوسط في يده، سوداء وقد أصابها تخثر، كانت يده ترتعش، وكان الألم ينتقل عبر ذراعه حتى وصل إلى رأسه، ظل الأمير جابر يضغط على رسغه يفكر، واقتربت خولة تقول في قلق:

- "ما الذي أصابه؟"

وقال الأمير جابر:

- "يبدو أنه قد تعرض للدغة...".

- "سيفقد وعيه!!".

- "أجل، و إن لم نفعل شيئا... فقد لا يستيقظ بعدها مرة أخرى".

القائد ليث، كان يرى مشهدا شاحبا أمامه، ويسمع أصواتا متقطعة، لكن وقبل أن يفقد وعيه مباشرة، سمع الأمير جابر وهو يخبره بأن الطريقة الوحيدة لإنقاذ حياته هي بأن يُقطع إصبعه، سمع ذلك في آخر لحظة، ثم غاب بعدها عن العالم.

على وقع ضربة نصل حاد حين التقائه مع حافة صخر، طارت أجنحة صغيرة من وسط الغابة، حلقت عبر خطوط الشمس الذهبية، ثم راحت تتبع الجياد في ركضها الحثيث تحت الظلال الممزقة نحو الشرق، هناك حيث تجثم مدينة أرض الغابة، مع منتصف النهار، كانوا قد أطلوا عليها، وحينما فتحت بوابة المدينة، فإن آخر من دخل، كان الأمير جابر، كان يمسك لجام حصان القائد ليث، وكان يراقبه حتى لا يسقط من على ظهره، ولم يفق القائد ليث بعدها إلا وهو يوضع على فراش بارد، حينها، أحس ببعض الألم في ذراعه، نظر إلى يده بصعوبة، كانت مغلفة بالكامل، وفهم سريعا ما أصابه، طلب كأس ماء ليشرب، ثم عاد يغلبه النعاس فنام حتى فجر اليوم التالي.

كانت السيدة مريم قد أوقدت نارا خارج الكوخ، وراحت تدس الحطب تحت قدر تغلي، ونادت خولة قائلة:

- "هاتها يا ابنتي...".

ومدت خولة يديها، كانت تحمل جرابا قماشيا تتحرك أشياء صغيرة بداخله، تناولته العجوز عنها ووضعته على جذع شجرة مصنوع على شكل مقعد، حملت قطعة خشب أخرى في يدها وراحت تضرب الجراب ضربات بطيئة:

- "لقد كان خطئي أنني لم أخبرك كيف تصنعين منها علاجا...".

- "أرجوك لا تقولي هذا...".

- "بسببي قُطعت أصابع الرجل...".

- "اثنان منها...".

- "وليكن... كان يمكن أن نتجنب حدوث ذلك".

- "لا بأس، القيد ليث رجل قوي بحيث لن تؤثر عليه إصابة كهذه...".

كانت خولة تجاري العجوز في حديثها المتعصب بصوت خافت، كأنما كانت تفكر في شيء غير ما كانت تود قوله، لكن العجوز كانت تفهم ذلك،

ولما انتهت من ضرب الجراب فإنها رفعته رأسا وجعلت تغمسه بداخل القدر دون أن تفلته:

- "أخبريني...".

- "ماذا؟".

- "ما الذي تخفينه، إنني أشعر بأنك تخفين أمرا".

- "ليس بي شيء...".

- "بلى..."قالت العجوز ذلك ورفعت الجراب على المقطوع الجذع مرة أخرى :"أرى حزنا في عينيك يا ابنتي، وأسمعه في صوتك..."وعادت تضربه مرة أخرى بقطعة الخشب، وران بينهما صمت لفترة، ثم نطقت خولة تقول في خجل:

- "هل تحبه؟".

- ...

- "تلك المرأة، هند... هل تحبه؟".

وتوقفت العجوز عن ضرب الجراب فجأة:

- "ولدي، جابر... يحبك أنت... ثم لا يهم بعدها، كم من امرأة تحبه، أليس كذلك؟".

كان وقع كلمات العجوز كقطعة جليد وضعت على قلب خولة، إذ لم تتوقع منها جوابا كهذا، ثم إنه أسعدها أنها لم تكن تنظر إليها وهي تقول ذلك، ومع هذا، فقد أشاحت بعينيها إلى جانب، واحمرت وجنتاها، وغلبتها ابتسامة أنثى داهم قلبها حب ذو عطر طيب، سكتت بعدها تفكر، وكررت العجوز نقل الجراب من على الجذع مرات عدة، ثم حملته وجعلت تعصره بين أصابع يديها حتى تقاطرت منه مياه سوداء تحمل رائحة كريهة، وحينها نطقت خولة تقول وكان في صوتها هذه المرة مرح دافئ:

- "لقد أتى زوجك، العم حيدر أتى وشارك في القتال ضد الأمير اَرون...".

وردت العجوز قائلة:

- "ففي أي غابة دفنتموه إذن!!"وضحكت خولة دون توقف، أما العجوز فاستتلت تقول بعجب :"هاه، أم أنكم لم تستطيعوا تهريب جثته... في هذه الحالة، لابد أنه قد تم ربط عظامه معا وغليها في قدر واحد...".

قالت خولة:

- "لا، لا... لم يمت... لقد جلب عنزته معه، أراد أن يخيف القنطور بها، لكنها بدل ذلك خافت وهربت من بين أقدامه...".

- "هاه...".

- "مازال مكتئبا وغاضبا منها...".

- "ليمت في روث عنزته الأخرى... لكن تلك التي أخذها، أي لون كانت؟".

- "سوداء...".

- "هاه... لا بأس بذلك إذن".

- "هل هي لك؟".

- "البيضاء تخصني...".

- "والسوداء؟".

- "تخصه...".

وضحكت خولة مرة أخرى، وحينما لملمت نفسها بعد ذلك، فإنه كان في يد العجوز كرة سوداء لزجة من الحشرات المهروسة، وذهبت بها نحو الكوخ فغابت بداخله لبضع لحظات ثم عادت تحمل إناءً خزفيا صغيرا ناولته خولة:

- "أضفت لها زيت التوت البري... فليضع منها على وجهه، ليغطه بالكامل، لثلاث ليال أو أربع، بعدها... سيكون وجهه قد صار مثل الأول... اذهبي الآن في طريقك، أمام أنا فسأذهب لأتفقد ذراع ليث...".

عادت خولة إلى القصر بعد ذلك، سألت عن الأمير جابر، لكنه لم يكن موجودا، أخبروها أنه أيضا بدوره قد ذهب لزيارة ليث، أخفت الدواء وظلت تنتظر، عندما عاد الأمير جابر مساءً، فإن خولة أسرعت تطرق باب غرفته، كان قد عاد لتوه، وفتح الباب وهناك سأم في عينه، كان يبدو متعبا، ورأى خولة تحمل في يديها إناءً به مادة سوداء لزجة تنبعث منها رائحة كريهة:

- "هذا...".

- "صنعته الطبيبة...".

وبقي الأمير متسمرا يطالع الإناء بوجهه الخشبي الأسود، ثم مد ذراعه وتلقف الإناء بيد واحدة، وأضافت خولة تقول بعدها، في رغبة، وأيضا في كثير من حرج:

- "هل... أساعدك؟".

ضيوف

كانت هذه هي أول مرة ترى فيها خولة السيدة نجلاء تضحك، بل إنها بدت سعيدة جدا، وهي تسمع حديث خولة، لما راحت تخبرها كيف انتهى بها الأمر لأن يغلق الأمير جابر باب غرفته في وجهها، لم تحزن خولة، بل إنه بدا لها أمرا يجوز أن يضحك المرء لسماعه، أمرا وبقدر الإزعاج الذي حمله، فإنه بدا لطيفا أيضا في الوقت ذاته، انطلقت السيدة نجلاء أخيرا تقول في مكر لطيف جدا:

- "الآن... سوف ترين شيئا جميلا في هذا العالم...".

ومطت خولة شفتيها بخجل، وعادت تقول في تعامي مصطنع:

- "ولم ذلك؟".

لم تفه السيد نجلاء بشيء أكثر مما قالت، ثم إنها أومأت بشفتيها نحو فتاة كانت تمر أسفل السلم تحمل منشفة في يديها، وتبعتها خولة الفتاة في زهو نحو المطبخ.

مرت ثلاثة أيام كاملة، لم يكن الأمير جابر يظهر فيها كثيرا، حينما طلعت شمس اليوم الرابع، ظهر ينزل السلالم نحو البستان الأخضر، كانت خولة

تسقي الزهور بمرش حين لمحت شيئا أسود يتحرك على مقربة منها، ضربتها فتاة على كتفها، وحينما رفعت رأسها، كان الأمير جابر قد تجاوزها بدرجات عدة، دون أن يقول شيئا، لم يكن قد نزع القناع أيضا، مسحت خولة يديها، ونظرت نحو شرفة من شرفات القصر، هناك حيث كانت السيدة نجلاء تقف بهيبتها، تبادلتا النظرات لوقت قصير جدا، ونظرتا بعدها نحوه، كان يبدو أن هناك أمرا يشغل فكره، فلقد توجه إلى جواده مباشرة، وأخذ يلاعبه على رأسه، ثم امتطاه بعدها وراح يعبر البوابة نحو ليهبط نحو المدينة.

عندما انتهت خولة من شغلها ذهبت عند السيدة مريم مباشرة بعد ذلك، ووجدتها تهمّ بمغادرة الكوخ، ووقفت خلفها بصمت مطبق، وبينا تضع العجوز مكنستها خلف الباب الخشبية، التفتت نحوها قائلة:

- "ماذا أتى بك أيضا؟".

وقالت خولة في تساؤل:

- "الدواء!!".

وردت العجوز بعدها:

- "سيفعل... سيظهر أثره، ليس بعد... لكنه سيظهر، أنت... ما تريدينه هو... إنما تريدين رؤية الأمير الوسيم أليس كذلك؟... متعجلة... فتاة

متعجلة... لكنني لا ألومك، لقد سمعت الفتيات يتحدثن عنه... وأخذت ترسمين ذلك في مخيلتك، حسنا... هو جميل بالقدر الذي تتخيلينه...".

أغلقت العجوز باب كوخها، واطمأنت على حيواناتها في الزريبة، بعد ذلك، انطلقت وخولة نحو المدينة، أثناء سيرهما، نطقت راحت تقول في غمغمة:

- "هل يبدو عليّ أنني أريد ذلك؟".

و إنما كانت تقصد بقولها هذا، إلا أن تسأل إن كان يظهر في تصرفاتها ما يوحي للعيان بأنها ترغب كثيرا في رؤية وجه الأمير جابر، كانت تقبض على يديها بينا تمشي، وعيناها لأسفل، ونطقت العجوز ترد عليها، بحرفين لا أكثر، بصوت بارد:

- "لا...".

وتوقفتا بعدها عند بيت يتكون من طابقين في وسط المدينة، سقفه قرميد أحمر، لا هو بالرديء ولا بالفخم أيضا، غير أنه جميل الصنعة، كانت تطل من صحنه أوراق شجرة مشمش، كان مربوطا أمامه جواد أسود بهي الخلقة، وكان لبابه حلقة نحاسية، وراحت العجوز تضربها على الخشب، فتحت باب المنزل، ودلفت المرأتان إلى الداخل.

على فراش زاه رطب ملون، محمول على أسِرّة أو على مقاعد خشبية عريضة، في أقصى صحن المنزل، وتحت الظلال الممزقة لشجرة المشمش، اتخذ الأربعة مجلسهم، كان هناك طبق فاكهة في الوسط، وطست ماء بارد وعدد من الأكواب من حوله، كان القائد ليث - بصفته رب المنزل - يجلس لوحده على سرير مقابل، ذلك أنه كان كلما استيقظ صباحا إلا وخرج من فراش زوجته فانطرح هناك وانكب يقرأ ويقلب الخرائط ويصنع الخطط الحربية حتى يطلع عليه الظلام مرة أخرى، كان هذا هو حاله منذ عودته من أرض الرماد بتلك الإصابة، اليوم، كان قد استعاد عافيته بشكل كبير جدا، فقد عادت الدماء إلى ذراعه، وذهب عنه الوجع، وصار بمقدوره أن يُخرج سيفه، انتهت العجوز من تقليب ذراعه لتوها، وجلست ترتكز على عصاها بجوار خولة، ونطقت تقول بصوت فاتر:

- "هاه... أما أنت فقد انتهينا من أمرك".

وقال القائد ليث:

- "أود لو أتأكد من أنني فهمت مقصدك جيدا".

وقالت العجوزة تجيبه:

- "أعني يا ولدي أنه بمقدورك أن تنزع الضماد من على يدك... فلم تعد له حاجة...".

فهم الأمير جابر مقصد العجوز بدوره، وأطلق نحنحة، وبينا عيناه في الأرض عند قدميه راح يأخذ دوره في الكلام أيضا:

- "بما أننا جميعا هنا، فأود لو نتحدث بشأن مهمتنا القادمة..."وأصغى الثلاثة بأسماعهم نحوه، بينا أردف قائلا:"كنا قد عرفنا من رجال أرض الرياح اللذين أمسكنا بهم أن والد خولة لا يزال على قيد الحياة حتى تلك اللحظة... فإذن وجهتنا التالية هي أرض الرياح، هدف المهمة الأساسي، هو أن ننقذ الرجل... خلال هذا، وإن كان بمقدورنا أن نفعل شيئا، فسنحاول كشف بعض الخبايا... أثناء تواجدنا في أرض الرماد كنت قد أجريت حديثا مع الأمير اَرون، قال أن هنالك شخصا ما يعمل مع الأمير شهاب من وراء ظهره، لم أستطع تحديد هويته، لكن يبدو أن أمره بالغ الأهمية، يبدو أيضا أنهم كانوا يعملون معا في البداية، ثلاثتهم، لكن شهاب خدع رجال اَرون وسرق منهم ورقة سحر قوية... "هنا توقف الأمير جابر فجأة، وراح كأنما غاب في شرود بعيد جدا، للحظة، ثم عاد يقول بعدها :"سرق منه ورقة سحر قوية، ثم إن هناك أمرا آخر، اَرون لم يكن يعلم بأنه بالإمكان تعميد أمراء

جدد، حتى بعد موت الساحر الأصغر... ولم يستبعد أن الأمير شهاب كان يعلم بالأمر ولم يطلعه عليه أثناء فترة وفاقهما، فإذن هناك خلاف كبير بينهما... قد نستغل هذه النقطة لصالحنا في المستقبل، بالعودة إلى تفاصيل المهمة، سوف نحاول سرقة الأوراق، أقول الأوراق لأن لديه أكثر من واحدة، حسنا، أعرف أن لديه اثنتان لا واحدة، وسيكون من الجيد إن استطعنا التخلص من إلى الأبد، كما أنه ينبغي علينا أن نسعى لكشف هوية الشريك الآخر، الذي يدعونه بالسيد...".

- "سيدي..."نطق القائد ليث فجأة ليقاطعه :"اعذرني، لكن... ما الفائدة التي ترجوها من قتله، أعني... إذا كانوا سيقومون بتعميد رجل آخر، إلا أن يكون انتقاما تود أخذه!!".

ورفع الأمير جابر وجهه الخشبي نحو السماء ينظر لبضع لحظات ثم عاد به نحو القائد ليث:

- "إن الورقة التي أخذها من رجال الأمير اَرون بها قوة مرعبة، بمقدور مالكها أن يرغم شخصا آخر على القيام بتصرف معين، دون أن يعي الضحية ما يفعل... في الليلة التي رحل فيها والداي، كان شهاب حاضرا

وختبئا بين رجال الأمير أكثم، كانا قد اتفقا على أمري... شهاب، وبتلك الورقة، جعلني أتلفظ بتلك الكلمات دون وعي مني...".

بقدر الغضب والاشمئزاز اللذان ينبغي أن يركبا المرء وهو يسمع حديثا كهذا، فإن الثلاثة صعقوا من هول الخبر، اتسعت أعينهم في سرعة بالغة، وارتجت قلوبهم أسا على الأمير جابر، ولعلمهم بمدى كراهيته لأن يوضع موضع شفقة، فأن أحدا منهم لم يظهر ما تحجر بداخله من غضب، إنما ظلوا يستمعون الحديث بأيادي مشدودة، وأفواه مغلقة، لكن خولة وهي تنظر عند قدميها، نطقت كأنما راحت تفكر بصوت مرتفع:

- "ما هذه الوحشية، ما غايتهما من كل ذلك؟".

ثم إن الأمير جابر نطق مباشرة بعد ذلك يجيبها:

- "اعتقد أكثم أنني قتلت شقيقته... لم يواجهني بالأمر، كما أنه لم يرد قتلي، لكنه بحث عن طريقة لإيذائي، وساعده شهاب في ذلك... خدعه مرة، واثنتين، وكان بمقدوره أن يخدعه أكثر، أكثم كان رجلا ذا بأس وقوة، لكنه كان يفتقر إلى عقل بارع".

- "سيدي...".

- "لا عليك يا ليث، حسنا، بشأن سؤالك... أجل، أود قتل شهاب لأشفي غليلي، أيضا... علني أمنع بقتله شرا عظيما يوشك أن يحل بهذا العالم، يمكننا بسهولة أن نفهم أن شهاب محور هذا الشر، وقد يكون إبعاده عن الساحة، حلا مناسبا... بالإمكان تعميد أمراء جدد، أجل، حتى اللحظة... لكن هذا لن يدوم إلى الأبد، بل ربما يمكن إلغائه في وقت لاحق...".

- "ما الذي تفكر فيه يا سيدي؟".

- "أفكر في أن أقوم بفعل شيء ما يا ليث... لازلت أفكر، لست متأكدا من نجاح الفكرة...".

- "أنتم الصغار، ترغبون كثيرا في أن تمرغوا أيديكم في النار، أليس كذلك؟".

كانت العجوز وحدها من فهمت فكرة الأمير جابر، ولذلك نطقت تقول هذا، ثم إن الأمير جابر تأملها مليا بنظراته، كانت تأخذ كأسا من فوق الطاولة، وأخذ تشرب، وارتد الأمير جابر بحديثه نحو القائد:

- "ماذا عنك يا ليث، كنت قد ذهبت إلى أرض الرياح مرة، فهل أعددت لنا شيئا لهذه المهمة؟".

وطفق ليث يمسح شفتيه بلسانه، أخرج أوراقا من تحت السرير وأفردها أمامه:

- "أود أولا أن أتأكد من أمرما يا سيدي".

- "تفضل".

- "صديقتنا التي هناك في أعالي الجبال بينهم، هل هي لا تزال معنا حتى اللحظة؟".

وأغمض الأمير جابر عينيه بينا يهز رأسه:

- "هي لا تزال معنا يا ليث... فلترسم خطتك استنادا على هذا أيضا".

- "رائع... الآن، إليكما هذه..."قال القائد ليث وجعل يناول خولة والأمير جابر بعضا من أوراقه، وارتد إلى مكانه بعدها وانطلق يسرد عليهم تفاصيل خطته التي من شأنها أن تمكنهم من تحقيق أهداف هذه الغزوة.

مضى من الوقت ساعة، والمرأة العجوز لا تزال تشخر على مقعدها، وحين طُرق باب المنزل فجأة، فقد قام القائد ليث يستقبل ليرى من الطارق، ووجد رشا تقف خلف الباب تحمل رسالة إلى الأمير جابر، ودعاها ليث للانضمام إليهم:

- "لقد جاء ربها رجل من أرض الماء يا سيدي...".

قالت رشا وهي تسلم الأمير جابر الرسالة ثم تراجعت على الوراء وتركته يقرأ ما حوته بداخلها.

- "اللعنة، هل هذا وقت شيء كهذا".

وقال القائد ليث مستفسرا ردة فعله الغاضبة على الرسالة.

- "ما الذي حدث يا سيدي؟".

وسلمه الأمير جابر الرسالة، وما إن نزلت عينا ليث عليها حتى تبدلت نظراته، وسرى سواد في وجهه، وصاح يقول بغضب:

- "كيف يمكن لوحش ما أن يترك أرضه، إن هذا لم يسبق أن حدث من قبل أبدت ".

وقال الأمير جابر:

- "لابد وأن لهذا علاقة بالوسيط الخاص بها".

- "محق..."وكان هذا صوت السيدة مريم قد أتى من خلفهم، ونظروا، و إذ بها تقف على قدميها بصعوبة، أخفت ذراعها خلف ظهرها وانطلقت تخاطب الأمير جابر في صوت متعب "للأمر علاقة بالوسيط حقا... ذات مرة أخبرني والدك عن هذا الأمر، كنت لا تزال صغيرا، قال أنه سر عظيم لا يجوز إخراجه، حتى أنت... لم يكن مسموحا لك أن تعرفه قبل أن تؤول إليك شؤون الإمارة... أخبرني أن أميران اثنان فقط يعلمان بأمره، ولم يكن يعرف الشخص الآخر، لكن الآن... سيكون من السيئ أن يبقى معي، اسمعني يا ولدي... هروب الوحش من أرضه له دلالة،وهي أن وسيط تلك الأرض قد تم إسقاطه...".

بينا يحكم القائد ليث قبضته حول الرسالة، فإنه تنهد بصعوبة وقال بعدها:

- "اَرون، أو شهاب ربما... أنا متأكد من أن الأمر لن يخرج عن أحدهما...".

وقال الأمير جابر:

- "هلا أكملت حديثك يا عمة؟".

وتبسمت العجوز في وجع:

- "هند لن تقدر على أن تتعامل مع وحشها مرة أخرى...".

- "نعم، أعرف هذا...".

- "هاه، تعرف، بالطبع تعرف... لكن ما لا تعلمه هو أنه صار بإمكان أي أمير آخر أن يمتلك هذا الوحش لنفسه...".

وصاح الأمير جابر فزعا:

- "ما الذي تقولينه؟".

وهزت العجوز رأسها:

- "أقول أنك إن لم تسرع بالبحث عنه والسيطرة عليه فإنّ غير سيفعل..."

قالت خولة:

- "تقصدين من قتل الوسيط أليس كذلك؟".

وردت العجوز عليها:

- "أجل يا ابنتي...".

وأضافت خولة:

- "لكن كيف يمكن السيطرة عليه، هل هنالك طريقة معينة؟".

- "هاه، سؤال جيد... وأنا ظننت أن أحدا لن يسأل عن هذا...".

بعين مائلة، نظرت خولة نحو الأمير جابر، ووجدته ينظر إليها شزرا، وما فرّق عيونهما إلا صوت العجوز لما راحت تضيف قائلة:

- "تتم السيطرة على الوحش الحر عبر جمعه مع وحش آخر لا يكون حرا".

قالت العجوز ولاذت إلى الصمت بعدها، تنتظر من الأمير جابر أن يعلق على الأمر بدوره، ولم يخب ظنها، إذ كان قد فهم ماهية الأمر جيدا، وراح يعيد شرح الأمر على الجميع باستفاضة:

- "يعني هذا أن أجمع التمساح والغراب معا بحيث يكونان على مقربة من بعضهما، ثم علي بعد ذلك أن أتواصل مع وسيط أرض الشجر كي أستطيع الرؤية عبر الغراب ثم من خلال الغراب قد أتمكن من الانتقال إلى التمساح أيضا".

وأومأت العجوز برأسها المعصب، تهزه لأعلى وأسفل، بينا تنظر من خط ضوء شحيح وهي تبتسم لفرط ذكاء الرجل.

وقال القائد ليث:

- "تصبح الأمور سهلة عندما نعرف ما الذي ينبغي علينا عمله".

وقال الأمير جابر:

- "أجل يا ليث، لكن المشكلة الآن تكمن في من قام بإسقاطه، وكيف استطاع فعل ذلك، فالوسطاء أنفسهم يتمتعون بقدرات دفاعية خاصة... على أي حال ينبغي أن نذهب إلى هناك ونتأكد من الأمر بأنفسنا، وسوف أرسل إلى الأميرة هند رسالة مع أحد الغربان لتنظم إلينا غدا في الأرض الوسطى"

خيول

يوم آخر، وخروج آخر، انطلق فيه الأمير جابر ورفاقه نحو الأرض الوسطى، باحثين عن الحقيقة، عابرين حدود أرضهم إلى أغوار محفوفة بالمخاطر، همهم الوحيد أن يمنعوا شيئا من الوقوع رغم أنهم لا يعرفون حقيقته، كل ما كانوا يعرفونه عنه هو أنه خطر عظيم يهدد عالمهم، خطر لم يتمكنوا بعد من تحديد معالمه.

كان كل من الأمير جابر وليث وخولة ورشا يمتطون أحصنتهم يقطعون طريقا ضيقا يجانب مكانا يدعى بالأرض الناعمة، وهي أرض ملئ بالأشجار وتقع قريبا من الأرض الوسطى وتقع في وسطها بقة فارغة ترعى فيها خيول برية منذ زكم بعيد دون أن يتم اصطيادها أو تتعرض للافتراس من قبل وحوش الغابة، وهو السبب الرئيسي لتسميتها هكذا، لكن الآن ولأنّ الغراب ذي العلامة البيضاء كان يحلق فوقهم فانّه استطاع أن يلمح بها أمرا غريبا ولذلك أطلق نعيقا جافا جعل الأمير جابر يشد لجام حصانه بقوة ليتوقف تماما عن الحركة.

قال القائد ليث وهو يخفف سرعته من خلفه:

- "سيدي، أعتقد أنني سمعت شيئا...".

ووصلت خولة ورشا أخيرا واستطاعتا أن تسمعا الصوت في آخر لحظة، كان المقطع الأخير من الصوت يشبه صرخة رجل يقوم من قبره، قبل أن ينقطع فجأة، وطفق الغراب حينئذ ينعق نعيقا سريعا، وتأكد الأمير جابر أن هناك خطبا وسأله القائد ليث وقد تملكه القلق:

- "ما كان هذا في رأيك؟"

وقال الأمير جابر:

- "شيء ما يحدث، هناك في الداخل"

ونظر ليث إلى عمق الغابة بتمعن:

- "إنّ الخيول تركض مهتاجة في فزع".

وركل الأمير جابر بطن حصانه حينئذ، وراحوا يدلفون إلى الغابة ببطئ وحذر، وحين توغلهم، انطلقت الحيوانات الصغيرة تخشخش في كل جهة وموضع، والخيول البرية التي كانت تراقب قدومهم، كان في عيونها روع ظاهر، فكانت سرعان ما تنطلق في عدو سريع مبتعدة عنهم، رغم أنّ هذا لم يكن شأنها في السابق، إذ أنها كانت تفكر كثيرا قبل أن تقرر الهروب من أي شيء يدخل بقعتها، فجأة، ومن عمق الظلال القريبة، أتت مهرة صغيرة

تمشي بلهفة نحوهم، تصك التراب بإصرار وتهز رأسها، ثم إنها جعلت تضرب الأرض بحافرها الصغير للحظة ثم انطلقت في عدو سريع لتعود من حيث أتت.

*****

تحسس الأمير جابر عنق فرس بنية اللون كانت ترقد طريحة عند قدمه، ظلت عيناها تنظران بصمت إلى الفراغ أمامها، لقد كانت ميتة، بل مقتولة بطريقة غير رحيمة، وكانت المهرة الصغيرة التي قادتهم إليها قد أخذت تلعق أذنها في مشهد حزين جدا.

انحنت رشا نحو الأرض في مكان قريب وأخذت قبضة من العشب وراحت تشتمها، وقال الأمير جابر وهو يطالع خمسة خيول أخرى مجزوزة الأعناق بطريقة بشعة كانت ملقاة على مقربة:

- "هل توصلت إلى شيء؟"

وقالت رشا:

- "الشخص الذي كان هنا، أو الشيء، أيا كان... فله رائحة نتنة، مثل رائحة جثة".

- "الجثث لا تتحرك".

- "بالطبع يا سيدي".

ونطق القائد ليث يقول وكان يجثو على ركبتيه يتحسس عنق إحدى الخيول بدوره:

- "من تسبب هو شخص يبرع في استخدام الخنجر".

وقال الأمير جابر وهو يقوم واقفا يخلط دما بين ثلاثة من أصابع يده:

- "بالفعل يا ليث، خنجر قديم فيه صدأ".

الآن أتى صوت خولة من موضع آخر، ذلك أنها كانت قد لمحت شيئا يلمع في الظل، فأخذته وجاءت تحمله في يدها:

- "أظنني عثرت على شيء هنا".

ونظروا، وإذ به خنجر قديم عليه بقع من الصدأ، وقدمته للأمير جابر، وما إن أمسكه في يده حتى تغيرت نظرته، مثله مثل ليث، ورشا، إذ كان فيه شيء ما أثار غيظهم، وراحت خولة تسأل:

- "ما بكم، لماذا تغيرت وجوهكم هكذا؟".

ونطقت رشا تجيبها:

- "هذا الخنجر، أتى من أرض الرياح يا خولة، عليه شعارهم".

- "أولئك مرة أخرى...".

- "ترى ما الذي يخططون لفعله؟".

نطق القائد ليث:

- "لن نعرف قبل أن نربط أحدهم إلى جذع شجرة ونجبره على التحدث، هذه هي الطريقة المتعارف عليها...".

في هذه اللحظة أطلق الأمير جابر الخنجر من يده في غضب نحو شجرة كانت تبعد لمسافة عشرين مترا فاستقر في وسطها وتيبس تماما في مكانه.

خرج الأربعة من الغابة، وكان عليهم بعد ذلك أن يغوصوا في معترك آخر من الأشجار ذات الظلال الممزقة، والتي سريعا ما أفضت بهم إلى ساحة الصرح المهدم، وراحوا يعبرون الجسر الخشبي في تؤدة، بينا عيونهم تتأمل كومة الحجارة المتراكمة وهم يسترجعون صور ذلك اليوم.

ربطوا خيولهم أسفل السلم الحجري الذي يصعد إلى موضع السحرة، تماما بجانب بضعة خيول أخرى كنا قد وصلت هناك في وقت سابق، وراحوا يصعدون في خطوات سريعة، كانت هند تتأمل عباءة ساحر أرضها الملطخة بدماء جافة، فيما كانت ثلاث فتيات مرافقات لها تقفن خلفها، وحين كان الأمير جابر يقترب منها فإنها اعتدلت واقفة بينا تقول كأنما تحدث نفسها وعيناها تنشطران من الغضب:

- "كيف تمكنوا من فعلها؟"التفتت بعدها إلى الأمير جابر"شكرا على قدومك".

- "هل توصلت إلى شيء؟".

- "لا يمكنني التفكير في شيء سوى أن الفاعل يمتلك قوة غير طبيعية، يفترض بالساحر أن يدافع عن نفسه إذا ما هوجم، ربما يكون الفاعل اَرون أو شهاب، يستحيل أن يخرج الأمر عن أحدهما".

- "لحظة "قال الأمير جابر ونزل يتفقد جثة الوسيط الساحر "وهذا أيضا".

- "ماذا تعني؟".

- "نفس الخنجر، هناك غبار صدأ حيث يكون موضع القطع... في الأرض الناعمة تم قتل بعض الخيول بنفس الطريقة، بخنجر يحمل نقش الريح، لكنّ قِدم الخنجر...".

- "لا يوحي بهذا، إذا ما الذي يمكن أن يدفع أميرا لاستخدام خنجر ظهر عليه الصدأ... أليس هذا ما تريد قوله؟".

- "أجل".

- "لكن ما شأن الخيول بكل ما يحدث؟".

- "لا أعرف، لم يتضح أي شيء بعد... ما نعرفه هو أن موت الوسيط قد حرر حارس أرضك، صارت بلا دفاع يحميها، عليك الحذر، قد تتعرضون للهجوم في أي لحظة... هل هناك تقدم في عملية التعقب؟".

- "لا، لم ننجح في العثور على أي علامة حتى اللحظة، وكأنه اختفى عن الوجود تماما هذه ".

- "سيظهر في مكان ما لا محالة... لكن إن حدث وعثرتم عليه فلا تحاولي استلطافه، لا فائدة من ذلك، فلن يتمكن من التعرف عليك هذه المرة".

- "فماذا أفعل إذن؟".

- "فقط قومي بتعقبه ومراقبته، من قتل الوسيط سيحاول العثور عليه أولا، علينا ألا نسمح له بذلك... لقد عرفنا بوجود فجوة يمكن السيطرة عليه من خلالها، و إن حدث ووصل إليه الأعداء قبلنا، فتلك مصيبة أخرى كبرى".

أصاب وجه الأميرة هند وجوم شديد رغم اختفائه، وغدت تنظر في حقد إلى الساحر الميت، كان شعور عظيم بالعجز يجثم على صدرها، وتنهدت تقول في توعد:

- "سوف أستعيده حتما، لن أسمح لأحد بأن يأخذه مني...".

- "جيد، عليك أن تبذلي قصار جهدك في تعقبه... أما نحن فسنمضي نحو الشمال اللحظة".

- "تعرف أنني ينبغي أن أظل في أرضي... مدينتي ليس لها أسوار كما تعلم، وبعد فقدان التمساح، لم يعد إمكاني ترك شعبي لفترة طويلة و إلا كنت سأرغب حتما في مرافقتك"قالت ذلك والتفتت نحو مرافقيه الثلاثة :"رجلان وفتاتان، لكن لابد وأنكم تعرفون ما الذي ينبغي عليكم فعله، في أمر كهذا، لن أسدي لك النصائح... كل ما يسعني فعله هو أن أتمنى لكم السلامة".

ثم إنها وما إن أتمت كلامها حتى دنت منه وقبلته قبلة صغيرة على خده الخشبي الأسود، كانت حركة ثوبها تُظهر ذلك، وأيضا القناع الذي تحرك نحو اليمين هاربا في أسوأ لحظة، ولم يجرأ الأمير جابر على النظر نحو خولة، لكن ليث، كان قد ألقى عليها نظرة، ولم يعرف بعدها كيف يمكن له أن يمضغ ابتسامة لم ترد أن تفارق وجهه.

انطلق الفريقان كل في طريقه، أما الأميرة هند وفتياتها فعدن أدراجهن نحو أرض الماء متخذات أقصر طريق لبلوغ ذلك، وأما الأمير جابر وفريقه فمضوا خلف الجبل يلتفون حوله ثم راحوا في ركض سريع نحو الشمال حيث تنتظرهم مغامرة عظيمة أخرى.

عبور

انزوت الشمس في مغربها، وحل الليل مثل لحاف أسود، ولمعت نجوم السماء قرب بعضها من خلف سحب متجمدة، وبعيدا جدا عند الأفق، كانت الجبال الرمادية تنغمس في ظلام دامس، صوت الليل الهادئ ظل ينبعث من جنبات الطريق في شكل أزيز حشرات أو نقنقة ضفادع أو خشخشات أرانب أو ثعالب، الخيول كانت في ركضها حثيث تتطاير أذيالها أجساد التنانين، على الجانب المضيء من القمر، نظر الأربعة في طريقهم، لكن مثل سهام حادة لها وجهة واحدة، كانوا لا يرون أكثر مما ينبغي، فراغ يمتد أمامهم، حيث تندفع رؤوس خيولهم الجامحة، الليل منعش، والهواء يبعث على النشاط والحركة، شعرت خولة بأن الهواء مختلف، أخف، وربما ألذ أيضا، الشمال بارد، قال ليث، ومضى يسبقها.

في منعرج أفضى بهم إلى سهوب فلاة ممتدة، سرت بهم العاديات بغير كلل، لم تكن تتوقف، إلا لما كان يراد لها ذلك، لتفقد شيء ما في الطريق، أو لتناول شيء يسد رمقهم، في الثلث الأخير من الليل، كانت أمامهم

سلاسل جبلية جرداء ليس فيها نبات أو شيء يتحرك، صخور وصخور تركب بعضها، تاهت خولة في تفاصيل المشهد، لهذا السبب لا يعرف عالمنا الكثير عن أرض الرياح، هذه الجبال هي درعهم، وجدار أرضهم، بها مداخل سرية إلى الجهة الأخرى، أين؟ إلى الجهة الأخرى، خلف كل هذا، هذه الصخور الصلبة الميتة، هنالك عالم صغير ينضح بالحياة والحركة، قالت رشا تجيب خولة عندما راحوا يدخلون فجا يمتد نحو الجبال المظلمة، بعد وقت قصير جذبوا ألجمة أحصنتهم في وقت واحد، ونطق القائد ليث يقول حينئذ:

- "أبعد من هذه النقطة، لا يمكن للخيول أن تمضي معنا، سيكون من السهل عليهم ملاحظتها...".

وقال الأمير جابر:

- "مع هذا الظلام يا ليث؟".

- "أجل يا سيدي، عيونهم كعيون الصقر في النظر، لا يمر شيء أسفل منهم دون أن يلحظوا وجوده...".

- "فكيف سنمرّ إلى هناك إذن؟".

وضيق ليث عينيه فوق الحصان ونظر نظرة فاحصة:

- "أنت ستمر...".

والتفت إليه الثلاثة باندهاش بينا واصل يملي فكرته:

- "المدخل الرئيسي يحرسه عدد كبير من الحراس، ولذلك سوف نتجنبه...".

قالت خولة:

- "فما العمل إذن؟".

- "ينتشر الحرس على امتداد هذه السلسلة الجبلية في مجموعات عدة، في كل مجموعة أربعة أشخاص، وتبتعد كل مجموعة عن الأخرى مسافة مائة متر فقط، ففي حال واجهت إحدى المجموعات مشكلة ما، فسيكون من السهل عليهم طلب المساعدة...".

- "تكفي بعض الصرخات فقط لتعلم كل المجموعات بوجود مشكلة".

هكذا نطق الأمير جابر يقول في نبرة بطيئة، وأتبعه القائد ليث بقوله:

- "نعم، ومن نوع الصرخة، سيعرفون أي مجموعة هي من أرسلت نداء الاستغاثة... الآن، تقتضي مهمتك أن تُمثل عليهم قليلا، ثم أن تذبحهم جميعا قبل أن تنطلق منهم أي صرخة... وسوف نحصل بعدها على مساحة مائتي متر لأن نمر دون أن يلحظوا أمرنا....".

وأتى صوت خولة قائلا في تساؤل:

- "لكننا لا نعرف أين تختبئ كل مجموعة، فكيف سيقوم بهذا؟".

وقال القائد ليث ناظرا:

- "تزداد حدة البرد على ذلك الارتفاع ويصير من الصعب تحمله، ولذلك فالنار لا تنطفئ بين أرجلهم... بعض المجموعات لا تجد جحورا جيدة، فهي تبقى في الخارج، حيث تصنع لنفسها مكانا فوق التراب أو على صخرة...".

وقال الأمير جابر ناظر إلى رشا:

- "أنت سوف تذهبين معي، يكفي أن تحددي لنا مكان مجموعة واحدة...".

وأومأت رشا برأسها، ونزلت عن فرسها بعد ذلك، وراحت على قدميها في عمق الظلام أمامهم، وانتظر الثلاثة بعض الوقت حتى عادت للظهور مجددا، كان في عينيها بريق ساطع، وقالت وهي تلتفت وتشير بيدها نحو الجبال المتصلة:

- "هناك تحت ذلك الفص من الجبل..."

ومضت بعد ذلك رفقة الأمير جابر ترشده نحو المكان الذي قامت بتحديده عن طريق بصرها الثاقب.

ربط ليث الخيول الأربعة في مكان قريب حيث بمقدورها أن ترعى ليومين متتاليين دون أن تثور من جوعها وعاد نحو خولة، فقالت تشرح ما ترى:

- "إنه يعرج...".

- "ماذا؟".

- "كي يخدع الحرس...".

وساد الصمت بينهما بعد ذلك لما لم يعد بمقدورهما أن يريا أكثر من شعلة نار صفراء صغيرة تنبت بين الصخور السوداء البعيدة.

وسط ذلك الظلام الدامس حيث تنفجر الصخور السوداء من صدور الجبال المتراصة، كان الأمير جابر قد وقف يتعرض لمسائلة من طرف أربعة رجال نزلوا إليه من بين ثنايا الصخور المرتفعة في سرعة خاطفة، كان واحد منهم يقف في المقدمة، وكان يُسقط سيفه على كتفه فيما يتحدث بلهجة آمرة، من أنت؟ و إلى أين أنت متوجه هكذا؟ ما شأنك؟ لم يجب الأمير جابر عن أي سؤال من تلك الأسئلة، إنما ظلّ ينظر عند قدميه في الأرض وأنفاس ثقيلة تخرج من بين ثقوب قناعه.

في الخلف، وبعد بضع دقائق، رأى كل من ليث وخولة قبس نار يتحرك، كانت إشارة للتحرك، ومضيا حينئذ نحو الظلام في حذر بالغ.

حينما وصلا إلى قاعدة المرتفعات الصخرية، فإنهما وجدا رشا تقف على رؤوس أربعة جثث ملقاة فوق بعضها، رجال عيونهم مغلقة، وتقطر من أفواههم قطرات دم حارة، كان الأمير جابر قد صعد إلى نقطة المراقبة فأرسل لهم الإشارة ثم عاد فنزل بعدها نحوهم، أطلق صفيرا خافتا، في الظلام راحت أعينهم نحوه، ثم ومن غير إبطاء أكثر، راحوا يصعدون الصخور الخطرة، كانت خولة تجد صعوبة في مجاراتهم، وكانوا يحرصون على ألا تبقى بعيدة عن أعينهم، بعد جهد متعب، وفي منتصف الطريق نحو الأعلى، بدأت نسمات باردة تهب عليهم، كانت تُسمع أصوات من اليمين لا تكاد تخبوا إلا لتعلو مرة أخرى، قال ليث ويده على التربة المتكسرة، يبدو أن إحدى المجموعات تستمتع بوقتها، نحن الآن على مستوى واحد مع نقاط المراقبة، علينا أن نسرع بتجاوزهم.

غير القمر مكانه، وبعد دقائق، وبوصولهم إلى قمة المرتفع، راح ضوء الشمس يرشح من فوقهم، ولوهلة، فإن المشهد خطف أبصارهم بشكل يكاد لا يصدق، ليث وحده من سبق له رؤية أرض الرياح قبل هذه اللحظة عندما

تم أسره واقتياده إلى الداخل في وقت سابق، ولذلك فلم تشخص عيناه مثلهم تماما، لكن رغم ذلك، كان لا يقدر على إخفاء انبهاره، إذ تاه في تفاصيل قمم الجبال المطلة في الأسفل مثل أطراف الأصابع من بين بحر الضباب الأبيض، كان لا يزال مبتسما، وقال وفي نبرته فخر واضح:

- "هذه هي، الأرض الجميلة السيئ أهلها...".

ونطق الأمير جابر قائلا:

- "هل مللت الغابات يا ليث؟".

ونحنح ليث نحنحة عظيمة وقد أصابه ارتباك فتلعثم قائلا:

- "لا... لا يا سدي، إنما... إنما...".

- "جميلة جدا...".

قالت خولة ونظرت إلى الأمير جابر. ربما لتنقذ ليث من تلك الورطة، ولكنّه فاجأها بقوله:

- "تبقى الشريعة أجمل من هذه، ليس كذلك؟".

وقالت خولة:

- "كلاهما يكتسي اللون الأبيض، لكن معك حق... الشريعة...".

وقطع ليث حديثها:

- "ما الذي تتخاطبان بشأنه؟".

ونظر إليه الأمير جابر:

- "نتحدث عن الثلج".

واقترن حاجبا القائد:

- "الثلج؟".

- "أجل يا ليث، الثلج...".

وأتى صوت رشا:

- "كيف لسماء صافية كهذه أن تتحد مع سماء أرض الرماد السامة؟".

سكت الجميع بعدها، وظلوا يحدقون في المشهد، عمق ساحق، وضباب مثل الثلج الأبيض الناصع ينزلق في الأسفل كبساط ممزق على امتداد البصر، قمم صخرية حادة ذات خضرة تنبت من بين السحب البيضاء في مستويات مختلفة، وطيور تحوم في هدوء فوق ذلك المشهد، خيوط الشمس تخلق بريقا ذهبيا، والريح عليل يضرب أكفهم وصدورهم، حتى ليبدو للمرء أن العالم جميل يخلو من شرور وخبث، وما أيقظهم من شرودهم إلا نسر عظيم طلع على مسافة بعيدة من بين الجبال الحجرية البارزة فجأة، وراح يرفرف بجناحيه الواسعين رفرفات عظيمة جعلت الضباب يتفرق من

تحته، كان حجمه في مثل حجم غراب أرض الغابة، وتجمعت الطيور الصغيرة من حوله، وحينها ذكرت خولة الغراب الذي كان يرافقهم، نظرت في الأرجاء ولم يكن له أثر، لكنها بعد ذلك لمحته يقف على صخرة قريبة، كان يطبق جناحيه ينظر برأس ثابت، ثم طار نحو السماء فجأة، قال ليث بعد ذلك:

- "القنطور لا يحب ضوء الشمس، والنسر لا يحب الظلمة، لذلك يرتفع فوق الضباب كلما أشرقت الشمس، ليعاود النزول في المساء بعد ذلك... لكنه في كلتا الحالتين سيكون قادرا على رؤية أعدائه وتحديدهم بدقة عالية، فعلينا إذن أن نحرص على ألا نبقى تحت بصره في حال وقعت مشكلة...".

لم يكن هذا الجانب من المرتفعات يشبه الآخر، ذلك أنه لم تكن هناك صخور سوداء ذات رؤوس حادة وزلقة قد تودي بحياة الواحد منهم إن هو زلت قدمه، لكن كان هناك عشب أخضر، وأزهار برية، وتراب يتدفق أمامهم، كانوا ينزلون عبر دروب محفورة مسبقا، يتدافعون في خط واحد، ولم يتحدث أي واحد منهم، حتى إذا اقتربوا من مستوى السحب وقفوا مرة أخرى ليلقوا نظرة، بياض عائم، ونور الشمس يتلألأ على بحر أبيض، القمم الجبلية البارزة مغلفة بالأشجار والنباتات المتسلقة، تظهر في بعضها

ثقوب مظلمة، تلك مغاراتهم، بعضهم يفضل العيش فوق السحب، فيما يفضل آخرون البقاء تحتها، قال ليث، وحمل حجرا من الأرض وألقى به بعيدا حيث أمكن، ما الذي تفعله يا ليث؟ أبدأ الهجمة، هم الآن هناك في الأسفل، ربما أصيب أحدهم فينقص عددهم، فيسهل علينا الأمر أكثر، لم يقل الأمير جابر شيئا بعدها، ومضى في نزوله، روح ليث المرحة تخرج لتبرز إليهم من وقت لآخر، بعد مسيرة دقيقة واحدة، التفت ليث إلى خولة وأنزل يده على وجهه، ولم يكن منها إلا أن أومأت بوجهها وكتفيها، هي أيضا لا تعرف، وسألتها رشا:

- "ماالذي يقوله؟".

فقالت خولة:

- "يسألني لماذا لم ينزع قناعه حتى اللحظة، من أين لي أن أعرف؟".

- ...

بعد مرور ساعتين من الانحدار المتواصل عبر المرتفع، قادتهم المنزلقات أخيرا إلى أرض مستوية، خضراء ليس فيها موضع شبر إلا وطلعت منه أعشاب وأزهار برية نبتت تحت أشجار باسقة ذات أفرع مثقلة بحبال طويلة تنزل إلى الأرض في مجموعات ملتوية، وقال ليث كونه مرشدهم في هذه

الرحلة، قال وهو يشد حبلا بيده القوية، هذه غابة القردة، المكان الوحيد الذي تعيش به القردة في عالمنا، وقالت رشا تعقب على كلامه، أجل، وقد أتت للترحيب بنا، نظروا، وكان هناك مجموعة من القردة ذات الشعر الأحمر قد أتت على أطرافها الأربعة من خلفهم، كانوا ينظرون بعيون نعسة، ولا يطيلون التحديق في ذات الموضع، لم يكونوا خائفين من الغرباء اللذين دخلوا أرضهم، إذ أنهم معتادون على رؤية البشر، عاد ليث يقول بصوت خافت:

- "علينا توخي الحذر، في العادة ينزل الناس إلى هنا للاصطياد أو لجمع الفاكهة، و إذا نحن أخفنا القردة وبدأت بالصراخ فربما تكشف أمرنا...".

لم يكد ليث ينهي حديثه، إلا وانطلقت الحيوانات تهرب فزعة، فغابت بعضها في الأجمات وتسلقت الأخرى الحبال القريبة، وعلق الأمير جابر باستياءٍ قائلا:

- "رائع...".

ونطقت خولة وكانت على عكسهم، تنظر وقد تسمرت عيناها في موضع آخر:

- "بات يتحقق كل ما تقوله أيها القائد...".

ونظر ليث، فطلعت في عينيه دهشة لِما رأى، ونطق يقول بتثاقل، وقد أخذ قلبه الصلب يخفق بسرعة:

- "بالفعل يا آنسة خولة...".

تصلبت أجساد الجميع فجأة، وتجمدت أنفاسهم، ذلك أنهم رأوا فتاة صغيرة تقف على مسافة قريبة وهي تحمل دمية خشبية في يدها وقد راحت تحدق فيهم بعينين ثابتتان مثل حصاتين لامعتين لا تعرفان شيئا.

حذر

كانت لحظة عصيبة، فكر فيها الجميع فيما يمكن فعله، وأيضا فيما لا يمكن فعله، كانت مجرد فتاة صغيرة، ربما تاهت وهي تلعب في الغابة، لم يكن بمقدور أي واحد منهم أن يفكر في طريقة مناسبة للتعامل معها، فلم تكن حيوانا لتطرد بحركة يد واحد، ولا رجلا يمكن خنقه، ولا امرأة يجوز ربطها في زاوية ما من زوايا الغابة، إنما فتاة بهية الوجه في العاشرة من عمرها تقف هناك تطل بثياب حريرية صفراء من بين الأجمات المنخفضة، تحمل دمية خشبية بين يديها، بينا تنظر نحوهم بعينين واسعتان جميلتان جدا، على عكس عيونهم المهتزة، فمجرد صرخة واحدة منها كانت لتفضحهم، لكن ما حدث بعد ذلك كان شيئا لم يخطر على بال أحد، لقد أتت نحوهم، ووقفت بينهم، دون أي خوف أو تردد، وقالت كأنما قد عثرت على أربعة أرانب:

- "من أنتم؟".

قالتها بصوت ناعم، كنغمة ريح مرت على أوراق الشجر، ولم ينبس منهم أحد ببنت شفه، فعادت تقول بعد ذلك:

- "هل أنت الأمير جابر، أمير الغابة؟ يقال أنه الوحيد من يضع قناعا خشبيا على وجهه، والدي أخبرني بهذا..."

بعد هذا، تنصل الأمير جابر من قلقه، ونطق يجيبها بروية:

- "أجل، أنا هو الأمير جابر".

ونظرت الفتاة بعدها في وجوه الآخرين ونقلت عيناها بينهم:

- "وأنتم؟".

وعاد الأمير جابر يقول بعد ذلك:

- "هم أصحابي، لكن من تكونين أنت، وما الذي تفعلينه هنا؟".

وقالت الفتاة الصغيرة:

- "اسمي ماريا...".

- ....

- "هل تبحثون عن شيء ما؟".

- "هل أنت هنا لوحدك؟".

- "لماذا، هل أنت خائف؟ يقولون أنك لا تخاف أبدا...".

- "لا، لست خائفا، ليس على نفسي، إنما...".

- "تخاف على فتاة صغيرة تتجول لوحدها في الغابة؟".

- "أجل...".

- "لا شيء هنا بمقدوره أن يؤذيني... إذا لم تفعلوا أنتم".

- "نحن لن نؤذيك...".

- "أعرف...".

- "أرى أنك لست لوحدك...".

ونظرت مايا إلى الدمية بين يديها:

- "هذا زالوف، أعطاني إياه والدي... هل ترغب في رؤيته؟".

ومد الأمير جابر يده بهدوء فتناول الدمية عنها، ورأى منحوتة خشبية لرجل ذا وجه ممسوح العينين، له ذراعان قويتان، فيما يرتدي ثيابا بالأحمر والأسود، وشعر الأمير فجأة بقشعريرة تسري في جسده بينا يمسك الدمية، فأسرع يعيدها إلى الفتاة مرة ثانية:

- "هل والدك أيضا هو من اختار لها هذا الاسم الذي قلته قبل لحظة؟".

وأومأت مايا برأسها.

- "هل تعرفين ما يعنيه؟".

- "يعني أنه رجل سيء، وملعون...".

تبادلا الاثنان نظرات طويلة بعد ذلك، وخلالها دارت في رأس الأمير جابر أفكار غريبة عن هوية الفتاة الصغيرة، وأفلت من شروده بعد أن أتاه صوتها:

- "ماذا، هل أخفتك؟".

- "هل ستمكثين هنا طويلا؟".

- "بالتأكيد أنا لن أغادر بدونكم...".

الآن فاجأهم ردها البارع، فتهيّبوا منها جميعا، وصاروا يقفون في حذر، إذ ظنوا أن الفتاة كانت تخدعهم منذ البداية لتربح وقتا، لكنها نطقت بعد ذلك تقول وهي تغمض عينيها بينا تتسع شفتاها الصغيرتان في ابتسامة بديعة:

- "ليس من اللائق أن أترككم هنا، بل سوف تكونون ضيوفا عندي...".

- ...

لم ينطق منهم أي أحد.

- "المسكن قريب من هنا...".

نظر الأمير جابر والقائد ليث في عيني بعضهما للحظات وبصمت مطبق، وبدا بعدها أنهما يتفقان على أمر واحد، تبسمت الفتاة في ضحكة، ثم سار الجميع بعدها على العشب الطويل البارد في عمق الغابة في حذر شديد تمثل في نظرات خاطفة ظلوا يلقونها يمنة ويسرة، لم تتحدث مايا بعد ذلك

مرة أخرى، لكنها ولحظة أن وصلوا عند كوخ جميل الصنعة يقف تحت ظلال شجرة جوز ضخمة، فإنها وقفت عند مدخله والتفتت نحوهم وهي تقول بينا يصدر ابتهاج في صوتها:

- "هذا منزلي الخاص... قد لا يسع الجميع لكنه...".

- "أهذا بيتك؟".

قاطعها الأمير جابر قائلا، فتغيرت نظرتها وصارت كأنما قد أفسد شيئا ما بداخلها:

- "ماذا في ذلك؟".

- ...

ونطق ليث قائلا، بينا يضع يديه على خصره يتلفّت حوله:

- "المكان فارغ، أليس لديك أي جيران هنا؟".

- "لا...".

- "هاه، حسنا...".

- "في الواقع، هذا مكاني السري، حيث آتي إليه في أوضاع خاصة، أما مسكن عائلتي فيقع في المرتفع الخامس...".

- ...

رمشت مايا بعينيها البديعتين بعد ذلك وسرت في وجهها دهشة مصطنعة:

- "آاا، أنتم لا تعرفون عما أتحدث!!".

وهم ليث بأن يفند حديثها، لكن يد الأمير جابر أوقفته عن ذلك، إذ مسه خفية في معصمه، وصار يقول بدلا عنه:

- "إنك لم تسألي عن سبب قدومنا إلى أرضكم!".

ونطقت مايا تجيبه دون أن تأخذ وقتا:

- "حسنا، أنت أمير، وأولئك رفاقك... أنتم من أرض الشجر، لكن الأمراء لا يأتون إلى زيارتنا من هذا الطريق في العادة، إنهم يستعملون البوابة الكبيرة، لكنني أفترض أنك مللت من ذلك... أعني أنك قد لا تحب أن تعامل بتلك الطريقة، ربما ترغب في التجول بحرية في أرضنا، دون أن تعامل بحرص بالغ، هذا محض افتراض كما تعرف، لكنني فتاة صغيرة، فلا يمكنني التفكير في شيء أفضل... أعرف أن الضيوف ذوو المكانة لا يحصلون على فرصة لتذوق طعام البسطاء، لكنني أراه لذيذا جدا، وسأكون سعيدة بأن أكون مرشدتكم أثناء تجوالكم في أرضنا...".

قالت خولة:

- "لكن يوجد آخرون غيرك من الناس يعرفون شكل الأمير أليس كذلك؟ سنحتاج للتنكر حتى نتمكن من السير دون أن يتعرف علينا أحد...".

- "أعرف..."قالت مايا وراحت تدفع باب الكوخ إلى الداخل :"ينبغي أن تأخذوا قسطا من الراحة، ليس لدي هنا طعام بما يكفي، لكنني سأذهب الآن إلى المستوى الثالث، إلى السوق، لكي أجلب من هناك شيئا لأجلكم...".

- "هل ستحضرين طعاما؟".

- "أجل... أنت ما اسمك؟".

- "اسمي خولة...".

- "وتلك؟".

- "أنا رشا...".

- "تتشابهان كثيرا... على كل، سأذهب الآن حتى أعود بسرعة...".

قالت الفتاة الصغيرة ذلك وانطلقت في عدو بديع على العشب الطري وغابت خلف ظلال الشجر، والتفت الأربعة نحو بعضهم، ونطق القائد ليث قائلا:

- "أما هذا فهو أمر لم نتوقعه أبدا...".

وقالت خولة:

- "أظنها فتاة طيبة، وصادقة...".

فيما نطقت رشا:

- "مع هذا، لا ينبغي علينا أن نرخي دفاعنا، حتى مع فتاة صغيرة... يقال أن الإنسان الذي يبدو طيبا، سيكون بمقدوره دوما أن يخدعك بطريقة أفضل من تلك التي لدى شخص لا ترتاح لحديثه...".

التفتت خولة إلى رشا، وقد تنبهت إلى مدى التغيير الذي صار حتى في طريقة تفكيرها وحديثها، وتذكرت يوم أن كانتا في عربة تاجر العبيد، حين كانت لا تكف عن البكاء، وكانت رشا تواسيها، وأتى أزيز الباب حينما دلف الأمير جابر إلى الكوخ قبلهم.

كان الكوخ نظيفا تلوح فيه أشياء جميلة، كان هناك سجاد على الأرض عليه أجنحة مطرزة بألوان السحب، وموقد نار في الزاوية، ورأس غزالة معلق على جدار الباب وجرابٌ فيه سهمان بريش أسود، كان المكان جميلا جدا رغم بساطته، وكان بالمقدور تقبل فكرة أن يعيش فيه أي شخص يمكن ذكره، إلا أن يكون فتاة صغيرة ووحيدة، تململ الصمت بينهم، حتى أتى صوت القائد ليث بعد فترة:

- "ليت أني أعرف كيف يكون باستطاعتي أن أطيل النظر مثلك في موضع واحد يا سيدي...".

وقال الأمير جابر بينا يرفع عينيه عن السجاد الموضوع وسط الغرفة:

- "لا، هي لن تخبر أحدا يا ليث...".

- "ربما ما يقلقني أكثر هو أنك متأكد من هذا".

- "هي ليست فتاة عادية، أرى في عينيها ذكاء متقد، لو أرادت أن تسبب لنا مشكلة، لكانت قد هربت حينما تعرفت علينا في الغابة، لأنها رأتنا أولا...".

وقالت رشا:

- "بالفعل، طريقة حديثها تدل على ذلك... فالأطفال في مثل سنها لا يقدرون في العادة على قول أجوبة مثل التي قالتها، حتى أسئلتها تبدو كأسئلة شخص بالغ قابل غرباء لتوه...".

وقالت خولة:

- "أظنها فتاة متعلمة...".

فقالت رشا:

- "مع ذلك...".

وقال ليث:

- "الآن يا سدي ينبغي علي أن أطرح سؤالا كهذا... هل نتجاهل الفتاة فنتبع خطتنا التي جئنا بها بحذافيرها، أم نمضي معها في أمرها...".

- "بل نمضي يا ليث... إنها سوف تساعدنا بطريقة أو بأخرى".

- "ما الذي تعنيه يا سيدي؟".

- "إن خطتنا لم تكن تقضي بأن نتجول وسط الناس وفي وضح النهار أيضا، لكن الآن أود فعل هذا...".

وقالت خولة:

- "هلا أفصحت عما يدور في خلدك؟".

ونظر إليها الأمير جابر نظرة جانبية، وكان يعض شفتيه خلف قناعه، وهم بأن يجيبها، لكنه سمع شيئا، وراح يبدل حديثه، وقال بينا يقوم الجميع عن أماكنهم:

- "لنرى ما يكون من أمرها...".

اكتشاف

عادت مايا بعد ساعة تحمل حزمة من الأقمشة وبعض الطعام بين ذراعيها ثم راحت تتنقل بينهم حتى وضعت في يدي كل واحد منهم شيئا من الثياب وقالت تحدثهم:

- "هاه، لم تكونوا تفكرون في أن تدخلوا المرتفعات بهذه المظاهر، صح؟".

ونظر الأمير جابر بين يديه للحظة:

- "هل دفعت ثمن كل هذا؟".

- "لا بأس، إنها لا تكلف كثيرا جدا...".

مضى وقت الطعام في الحديث عن أرض الرياح، إذ راحت مايا تخبرهم عن جمال أراضيها وطيبة ناسها، فكانت تضحك تارة، وتمضغ طعامها تارة أخرى، وظل الأمير جابر يتفقدها بعين حذرة، من خلف قناعه الصلب الأسود.

بدل الجميع ثيابهم بعد ذلك وخرجوا بثياب بيضاء مريحة، يربطون خصورهم بأحزمة متدلية، ويغطون رؤوسهم بقبعات مربعة الشكل تشبه

الأكواخ الصغيرة، مشوا في الغابة، وبينا يخف تعانق الأشجار حولهم، بانت أمامهم قمم جبال خضراء كانت تنبع مثل رؤوس الفطر تبرز من وسط بحر من الضباب يمتد على مرأى البصر.

إن شكل المستويات لم يكن معروفا لدى أي واحد منهم - ماعدا القائد ليث - إلا بالقدر الذي تسلل خبره على الألسن، ففي أعوام سبقت، كان الأمير جابر قد سمع وصفا موجزا للأرض من والده، وفي كل خطوة كان يخطوها في هذه الأرض، كان حديث والده ينهمر في رأسه مثل أشلاء ثلج أسود، كان مؤلما أن يسمع صوته في وقت كهذا.

بعد خروجهم من الغابة مباشرة كان هناك جسر خشبي عائم ينطلق من حافة الأرض التي كانوا يقفون عليها ليمتد نحو بحر من الضباب ويختفي جزءه كبير منه بداخله، وقالت مايا حينئذ تقول في ذكاء متقدد:

- "تتكون أرضنا من خمس مستويات مختلفة، يربط بين هذه الغابة المهجورة وهي الأرض الأكثر انخفاضا وبين المرتفع الأول والثاني أو الثاني والثالث ممرات خشبية، فيما يتصل الثالث والرابع أو الرابع والخامس مع بعضهم مباشرة... خلف هذا الجسر يوجد المرتفع الأول، وفيه

يعيش أتعس الناس وأضعفهم، إنهم يعملون فقط في الزراعة، ولا يتقنون شيئا آخر، كما أنه غير مسموح لهم بتجاوز مستوى الثالث...".

قالت رشا بينا تضع أولى خطواتها على الجسر الخشبي:

- "إلى أي عمق يمكن أن تمتد هذه الهوة؟".

قالت مايا:

- "لا أحد يعرف، فلم يسبق أن سقط شخص ما وعاد مرة أخرى".

وقالت خولة تسأل:

- "هل لكل مستوى شعب يخصه؟".

وقالت مايا:

- "فعلا، فمثلا يختص أهل المرتفع الثاني بممارسة الحرف والمهن المتعبة".

- "وماذا عن المرتفع الثالث؟".

- "هناك حيث أقيم أنا، وذلك مرتفع يسكنه أناس يعيشون في ظروف جيدة، فهم لا يضطرون إلى القيام بأعمال متعبة غالبا، بل يملكون محلات ومتاجر يعملون بها، كما أنه يوجد به السوق الكبير الذي يأتي إليه الجميع للمبادلة...".

وقالت رشا:

- "فماذا عن المرتفع الرابع؟".

- "هو للأثرياء ولقادة الجيش الكبار أيضا، بعضهم يمتلكون متاجر كبيرة في المرتفع الثاني أو أراضي زراعية في المرتفع الأول... في العادة لا يسمح لساكني المرتفع الأول أو الثاني أو الثالث بالصعود إلى المرتفع الرابع".

وقالت خولة:

- "وماذا عن المرتفع الخامس، أفترض أنه مكان يقيم به أمير أرضكم".

- "أجل، قصر الأمير هناك فعلا، ولا يحق لمن هم دون المرتفع الرابع أن يصعدوا إليه أبدا...".

حتى هذه اللحظة كانوا قد عبروا الجسر الخشبي نحو حافة المرتفع الأول، ولما خرجوا من جدار الضباب الفاصل فقد رأوا أناسا هزيلي الأجساد يقفون في ثياب رثة وسط عدد من الأراضي الزراعية المقسمة والتي كانت تنتشر على أطرافها بضعة أكواخ صغيرة تمثل مساكنهم.

خلال مرورهم عبر الحقول الزراعية لم يرفع أحد من المزارعين رأسه نحوهم، فقد كانوا منشغلين بأعمالهم الشاقة غاية الانشغال ولذلك فقد

كان مرورهم سريعا نحو الجسر الخشبي الآخر الذي يقود نحو المرتفع الثاني.

قالت مايا وهي تشير بيدها الصغيرة بينا تقودهم خلال أرض تنتشر بها أبنية كثيرة وحوانيت ومنازل وأناس يرتدون ثيابا جيدة نسبيا ويتحركون في سرعة غريبة كأنهم خلية نحل لا تهدأ:

- "تلك محلات دباغة وتلك مصانع للنسيج وتلك للأخشاب والقصب، وأما تلك فللحدادة والأسلحة...".

كانت رائحة الحديد المنصهر تنخر أنوفهم، وغبار النسيج يملأ ألسنتهم، وتراب الأرض يملأ الجو، وأحاديث العمال لا تتوقف، كان الناس يعملون بلا كلل، ولا ينظرون فيما لا يعنيهم، في هذا الجزء من هذه الأرض الغريبة، كان من السهل عليهم أيضا أن يتجولوا بحرية، ظلت مايا تحدثهم عن حياة الناس الشاقة، وهم يصعدون دربا يقود إلى مكان مرتفع يطل على المكان بكامله، وقالت رشا تسأل:

- "ألا يتجول الحراس هنا، إنني لم أرى أحدا منهم أبدا، لا هنا ولا في المرتفع الأول".

وقالت مايا تجيبها:

- "وهل تريدين ملاقاتهم؟".

- "لا، ليس وكأنني أريد ملاقاتهم، إنما استغربت الأمر فقط...".

وضحكت مايا للحظة:

- "لا يوجد أي جيش بإمكانه أن يقتحم أرضنا، والناس لا يتقاتلون فيما بينهم، فالنسر يمنعهم عن ذلك... إذن يبقى الجنود في معسكراتهم أو يتواجدون في مراكز المراقبة، والقليل منهم يتواجدون في المرتفعات الأعلى لحماية الأثرياء من السرقة، ولا داعي لأن يتجولوا هنا وسط الفقراء بلا سبب...".

وقف الجميع الآن على مرتفع يطل على المستوى الثاني بشكل واسع، كان الظلام قد بدأ يحل في هذه اللحظة، وبينا تتصاعد أدخنة الأكواخ والحوانيت تحتهم، بدأ الناس في الانحسار تدريجيا نحو منازلهم، ووقفت مايا في مقدمتهم وراحت تأخذ نفسا باردا حتى امتلأ حلقها:

- "يقال أن أرضنا هي الأجمل من بين الأراضي الخمسة...".

وقال الأمير جابر:

- "فعلا، هي كذلك... لكننا الآن لن نستطيع الذهاب لأبعد من هذا المستوى".

مكث الجميع هناك لفترة طويلة يتبادلون الحديث فيما بينهم، وحينما مالت الشمس نحو الأفق، وامتلأ الهواء ظلمة وسكينة، فإنهم راحوا يعودون أدراجهم نحو الكوخ في الغابة المعزولة، وخلال ذلك كان النسر العظيم يحلق في السماء فوقهم مثل ملاك حارس.

*****

وقف الأمير جابر يضم ذراعيه تحت ظلمة شجرة قريبة من الكوخ يتأمل النسر بعينين نصف مغلقتان، حتى جاء ليث فوقف بجانبه:

- "عظيم، ها!!".

- "فعلا...".

- "تُرى من سيفوز إن تواجه مع الغراب في معركة؟".

- "لا أدري يا ليث، لكنني أشعر بأننا سوف نرى هذا قريبا...".

وحل بعدها صمت قاتم:

- "هل ذهبتا إلى النوم؟".

- "أجل... أنا سأبقى هنا للحراسة، يمكنك أن ترتاح أنت أيضا...".

- "ليس لي رغبة، اذهب أنت، أنا سأتجول قليلا..."

بعد انقضاء ثلث الليل الأول، كان الأمير جابر لا يزال جالسا على العشب عند حافة الغابة يتأمل النسر العظيم وهو يمر تحت قرص القمر، كان شاردا في فكره، وحين أتاه صوت خرخشات من خلفه، فإنه لم يلتفت، وظل على هيئته لا يحرك ساكنا، لكن لما أتت خولة وجلست بقربه، خفض رأسه نحو الأرض وخاطبها بصوت مثقل:

- "ما الأمر؟".

- "لا شيء... إننا لم نتحدث منذ فترة".

- "أتعلمين... خطأ صغير فقط، قد يتسبب في مقتل والدك...".

- ...

- "أفكر في...".

- "أنا لم آتي إلى هنا لأتحدث عن والدي...".

- "فلماذا أتيت إذن؟".

- "أتدري ما هي مشكلتك؟ أنك تترك للعالم متسعا بداخلك، العالم الخارجي، وما يحمله من هموم وضغوط لا تنتهي، فيما لا تفعل هذا مع من

هم حولك، إنك تبعدهم، فلا تتحدث إليهم إلا وكأن أحدا يجبرك على ذلك...".

- "لن يكون بمقدورك أبدا أن تعي ما بداخلي...".

تشنج فكر خولة في هذه اللحظة، ولشدة ما كرهت منه أن يقول ذلك، فإنها شدت يديها إلى ساقيها وضمتهما بقوة، وحين ضاق نفسها من رده، فإنها أخذت شيئا من الهواء في ثغرها ثم أخرجته بهدوء بالغ.

- "ليمضي كل هذا يا خولة، بل سيمضي... سيمضي وسوف يكون لنا شأن آخر، أنا وأنت...".

أغمضت خولة عينيها بقوة، وكانت لتموت بسرعة لو أنها علمت أنه التفت في تلك اللحظة لينظر إليها، كان خجلها قد تعاظم وسرت منه رعشة في جسمها، وحين فتحت عينيها بعد ذلك، فإن الأمير جابر كان قد عاد يطالع السماء وقد كانت غريبة في تلك اللحظة.

غياب

حل الصباح أخيرا، واجتمع الرفاق عند الجسر الخشبي مرة أخرى، وحين أتت مايا لاستقبالهم، فإنه كان في وجهها الجميل إشراق وابتسامة، كان الجو في ذلك الصباح لطيفا ويبعث على النشاط والحركة، وفيما راح المزارعون يعودون تدريجيا إلى حقولهم، انطلقت مايا بضيوفها نحو المرتفعات مجددا، عرفتهم على أماكن مختلفة، وأرتهم تفاصيل أكثر هذه المرة، ثم إنهم تجاوزوا المرتفع الثاني نحو المرتفع الثالث فأخذتهم إلى السوق الكبير وجعلتهم يتذوقون أطعمة لذيذة تشتهر بها أرض الرياح دون سواها، في هذا الجزء من هذه الأرض الغريبة، كان الناس أكثر إشراقا، وأكثر بعثا على الحياة والألفة، كان صراخ الباعة لا ينضب، وكان الناس ذوو الثياب النظيفة يحملون أكياس صغيرة مربوطة ويتحركون بسرعة ويساومون الباعة بألسن لا تكل ولا تتعب، كانت مايا توجههم في مرح غامر، وكانت خولة ورشا تتماشيان معها، تنبهران بألوان الثياب المعروضة، وتفرحان لرؤية طائرات ورقية معلقة، بينا ظل الأمير جابر وليث ينظران في الأرجاء يبحثان عن أشياء محددة، فمن تحت قبعتيهما الواسعتين، كانت

أعينهما تتحرك إلى الزوايا وبين الأشخاص بخفة، استمر تجوالهم في المستوى الثالث حتى حلول مساء اليوم، ثم راحوا يعودون أدراجهم، ومشت مايا معهم حتى بلغت الكوخ هذه المرة ثم عادت أدراجها.

استأذن الأمير جابر رفاقه في أن يغيب لبعض الوقت عنهم، وما إن أظلم الليل حتى عاد للظهور مجددا، ولحظة دخوله الكوخ فإنه جلس يفكر شاردا ثم راح يخاطبهم بقوله:

- "لقد تجولنا حتى الآن بما يكفي، علينا أن نبدأ بتنفيذ ما جئنا لأجله".

وقال ليث:

- "سأبدأ بجمع الحبال غدا".

وقالت خولة:

- "وماذا عنا أنا ورشا؟".

فقال الأمير جابر:

- "حاولا أن تبقيا تلك الفتاة بعيدة عما نسعى لفعله".

وقالت رشا:

- "فإذن لم لا نجعلها تأخذنا في جولة أخرى إلى تلك الأراضي؟".

- "أجل، سيكون ذلك مناسبا".

وقالت خولة:

- "وماذا عنك أنت، ما الذي ستفعله؟".

- "لا شيء محدد، سأتجول لوحدي قليلا، لأفكر في شيء ما".

لم ترتح خولة كثيرا لنبرة صوته، بل حتى أنها لم تصدق ما قاله، ذلك أنها باتت تعرف جيدا كيف تكون إجاباته المبتورة.

****

بحلول الصباح الباكر، انطلق ليث إلى عمق الغابة ليجمع الحبال المتدلية من الأشجار، وراح يضعها فوق بعضها في كومات صغيرة حتى يسهل عليه جمعها بعد ذلك، كانت مهمة سهلة وغير متعبة، وقضى في ذلك ساعتين من الوقت، وحين عاد بعد ذلك إلى الكوخ وهو يحمل الحبال الثقيلة على ظهره فإنه لم يجد أحدا، وفهم أن الفتاتان خرجتا مع مايا نحو تلك الأراضي فعلا، لكن فيما يخص الأمير جابر، فإنه لم يكن بمقدوره أن يصل إلى أي فكرة بشأن موقعه، لكن مثل خولة بالأمس تماما، إن شعورا بالشك ساوره، وجعل ينظر إلى السماء بعين قلقة، وحين استوت الشمس

في كبد السماء أتت خولة ورشا تعودان معا، ووجدتا ليث يجلس أمام عتبة الكوخ يفكر فابتدرهما بقوله:

- "أين هي الفتاة، ألم تكونا برفقتها؟".

وقالت رشا:

- "بلى، لكنها عادت إلى بيتها، وسوف تأتي في المساء مرة أخرى".

وقالت خولة:

- "هل انتهيت من جمع الحبال".

- "لم أستغرق وقتا طويلا، هي خلف الكوخ الآن، لقد أخفيتها تحت الأجمة".

- "حسنا فعلت".

- "وماذا عن الأمير المغامر، هل لديكما فكرة عن مكان تواجده؟".

وهزت الفتاتان رأسيهما في وقت واحد:

مع حلول وقت العصر، لم يظهر للأمير جابر أي أثر،ولم تأتي مايا أيضا مثلما وعدت صباحا، وحينئذ بدأ القلق يساور ثلاثتهم، ومشى ليث أمام الكوخ ذهابا جيئة:

- "هل أذهب لربط الحبال أم أنتظر قدومه؟ لا، لا، سأنتظر... لكن... بل سأذهب، هذا تأخير فقط... هل ذهابي لوحدي سيسبب لنا المشاكل؟ ... لا أظن هذا، لكن قد يحدث شيء... أنا في حيرة من أمري، بل أنا قلق فقط... ربما... ربما إذا..."

كانت خولة ورشا تجلسان على عتبة الباب تراقبانه وهو يحدث نفسه، كان القلق قد اشتد بهما أيضا، لكن لم يكن بوسع أحد منهم أن يفعل شيئا، كان المساء قد راح ينسحب، وبدأ الظلام يمتد فوقهم، وحينما جلسوا لتناول الطعام فإن أحد منهم لم يستطع تناول حصته كامل، وأما الليل بعد ذلك فقد مر بطيئا مثل سنة كاملة.

عندما استيقظ القائد ليث صباحان فقد كان ذلك لأنّ عصفورا حط على ساقه الممدودة على فرش بسيط بجانب الكوخ للحظة ثم طار بسرعة بعد ذلك، وحينما فتح عينيه وقام واقفا فإنه رأى مايا تقف أمامه تطالعه بوجه باسم بينا تحمل بيديها سلة فاكهة كبيرة.

قالت مايا بعد ذلك لما اجتمعت اجتمعت مع ثلاثتهم.

- "ماذا بكم، ما الذي حدث؟ إنكم جميعا تنظرون نحوي بوجوه متجهمة".

وقالت رشا:

- "كل ما في الأمر أنّ الأمير جابر لم يظهر منذ يوم كامل".

وقالت خولة:

- "وماذا عنك أنت، لقد قلت بأنك سوف تأتين لزيارتنا في المساء أيضا، فهل حدث أمر ما؟".

- "لا، ليس بشيء يذكر، إنني أعتذر...".

قالت ذلك وأسرعت تبعد عينيها عنهم، وراحت تدخل سلة الفاكهة إلى الداخل، لكن صنيعها هذا لم يشفع لها أمام نظراتهم المتقدة، إذ سرت في نفوسهم فكرة سيئة بخصوص ما يحصل، وحتى حينما خرجت بعد ذلك ووقفت أمامهم بوجهها الجميل ذي البراءة، فإن أحدا منهم لم يقدر على أن يصطنع أمامها ابتسامة، كان الحذر يخطف ألبابهم، ونطقت مايا تقول حينئذ بمرح:

- "هل تنوون الذهاب إلى مكان ما؟".

ولم يجبها أحد، لكن وقبل أن تشعر مايا بسوء نظراتهم إليها، فإن زائرا أتى إليهم في تلك اللحظة.

خيانة

نزل الغراب ذي العلامة البيضاء وراح يدور على الأرض بقدميه الصغيرتين أمامهم مرفرفا بجناحيه بينا ينعق في شراسة، ونزل ليث نحوه ومد يده ليأخذ شيئا كان معلقا بساقه، ثم قام بعدها وقد تلبدت نظرته أكثر، وتوجه بعينيه نحو مايا للحظة ثم أحاط رقبتها الصغيرة بقبضته القوية في سرعة خاطفة ورفعها عن الأرض بقوة مناسبة وصاح فيها بصوت مرعب:

- "من تكونين أنت؟".

واندفعت كل من خولة ورشا في هلع تحاولان تخليصها من قبضته، لكن ذراعه كانت أصلب من أن تتمكنا من تحريكها، ثمّ إنّه رفع الفتاة الصغيرة أكثر نحو الأعلى وعاد يصيح في وجهها:

- "تكلمي أيتها الشيطانة الصغيرة، هيا... ماذا تكونين أنت، وماذا فعلت بسيدي؟".

وأتى صوت خولة فزِعا:

- "اهدأ أيها القائد، وأخبرنا ما الذي يجري".

وقال ليث دون أن تخف حدة غضبه:

- "هذه الفتاة، إنها ليست عادية... ثمة خطب ما أصاب الأمير جابر"ونظر إلى يده الأخرى :"هذه قطعة من ثيابه، إنه في ورطة".

وقالت رشا:

- "لكن ما دخل الفتاة هنا، ما الذي يمكن أن تفعله؟".

- "ثمة أمر لا تعلمانه... منذ البداية أخبرني جابر بأنه يشك في أمرها، لكن بالأمس وقبل أن يغادر مباشرة أخبرني بأنه سوف يرسل حجرا مع الغراب إن هو غاب عنا ووقع له أمر سيء، فيما يرسل قطعة من ثيابه إن كان لهذه الفتاة علاقة بما أصابه".

وأتى صوت الفتاة الصغيرة مخنوقا بينا تتلوى تحت قبضة القائد:

- "أن... زلني".

وقالت خولة:

- "حسنا، دع الفتاة تتحدث، إنها تتأذى... ليث، ليث دعها قبل أن تتأذى".

ارتخت قبضته ليث أخيرا، فأنزل الفتاة على قدميها، لكن عينيه لم تكفا عن تفرسها، ودفعها أمامه بعد ذلك إلى داخل الكوخ بينا وثب الغراب عائدا إلى جوه.

****

جلس الثلاثة على سرير واحد، فيما جلست مايا لوحدها على السرير المقابل، وبينا ينتظرون منها أن تقول شيئا فإنه مر وقت طويل حتى راحت تقول وهي تعصر يديها الصغيرتان في حجرها:

- "لابد وأنها قد قامت بخداعه".

- "من، من قامت بخداعه؟... واصلي الحديث هيا".

- "زوجة أبي... إنها الجاسوسة التي أرسلتموها لتكون خادمة في قصرنا".

دهش الثلاثة لحديث الفتاة الصغيرة، حتى لقد اتسعت عيونهم في وقت واحد، في حين وقف ليث وقال بصوت شديد مثلما أنّه يزأر:

- "من تكونين أنت؟".

ورفعت مايا رأسها قليلا لأعلى، لكن دون أن تنظر إلى وجه أحد:

- "أنا الأميرة مايا، ابنة الأمير شهاب، أمير أرض الرياح".

الآن ساد صمت في أرجاء الكوخ كالذي يكون حينما يلقي أحدهم نكتة غير مضحكة، ونزل بعدها ليث في مكانه بفاه فاغر:

- "ما الذي تقولينه".

- ...

ظلت مايا لا تفارق أرضية الكوخ بعينيها، ثم إنها حين قدرت على أن تنظر في وجوههم تواليا بعينين شبه دامعتان فإن حديثا بنبرة حزينة متوجعة راح يتسرب من فمها الصغير المرتعش:

- "لم يكن خطئي، لقد طلب مني أن أفعل هذا، لقد كان هو من طلب إعداد لقاءٍ معها".

قالت ذلك ولاذت إلى الصمت بين ظهر دمع في عينيها.

وحينئذ نطقت خولة تقول في صوت ذي نبرة تناسب فتاة صغيرة تتعرض للمسائلة:

- "ما الذي تعنينه بقوله، هلاّ تحدثت بشكل أوضح؟".

وأضافت رشا:

- "أرجوك تحدثي، أخبرينا ما الذي حدث منذ البداية".

ورفعت الفتاة رأسها تقول بعد ذلك.

- "كان يعرف... الأمير جابر كان يعرف منذ البداية أنني لست فتاة عادية، لكنه ظل يتظاهر بأنه لا يعرف".

وقاطعها ليث:

- "لحظة، لكن كيف عرف هذا؟".

- "قلتَ قبل قليل أنه أخبرك بأنه كان يشك في أمري منذ البداية... حسنا، عندما افترقنا بالأمس وبينما كنت أعود نحو الأرض الثانية جاء نحوي فجأة وأوقفني، لم يكن هنالك أحد غير بعض المزارعين اللذين كانوا يغادرون حقولهم، ولقد تحدث معي بطريقة جيدة، لم يرغب في إخافتي... قال أنه لن يفكر في إيذائي مهما كان ردي على طلبه".

ونطقت خولة تقاطعها:

- "طلبه".

- "أجل، لقد طلب مني أن أُعد له لقاءً مع نيفين، قال أنه يعرف من أكون حقا، وأنه لن يفكر أبدا في إيذائي... ربما أكون فتاة ذكية، لكنني ارتكبت بعض الأخطاء أيضا، أخطاء يستطيع أمير ذكي مثل الأمير جابر أن ينتبه لها، في البداية، كانت هذه الملابس التي أحضرتها لكم، يفترض أن يكون من الصعب على فتاة صغيرة عادية أن تدبر كل هذه الملابس، لكن كان علي فعل ذلك، وسوف أخبركم بالسبب، كنت قد قلت في أحدى المرات أن الأرض الأولى يعيش فيها أتعس الناس وأضعفهم، ولم يكن يفترض بي أن

أقول كلمات كهذه، وكأنني أكثر منهم قيمة، لكن في موضع آخر قلت أنني أرى طعام البسطاء لذيذا جدا، وهذا ما أكد شكوكه، وفي إحدى المرات وأثناء تجولنا في المرتفع الثاني تمكن من ملاحظة حارسي الشخصي، دون أن يظهر ذلك لأحد".

وصاح ليث في انفعال سريع وهو يوشك أن يقوم واقفا:

- "حارس شخصي! هل كان يتجول طوال الوقت حولنا؟ تبا، كيف لم أتمكن من ملاحظته".

- "ذلك لأنه تدرب جيدا، وليس من السهل كشفه، لقد كان قريبا منا خلال جولاتنا في المستويات كلها، وحتى عندما آتي إلى هنا، يكون قد بقي مختبئا عند حدود الغابة في انتظاري".

- "هل هذا يعني أنه الآن هنا؟".

وقالت مايا في صوت فيه ضيق:

- "لا، لقد عاد إلى المرتفع الخامس، إلى القصر ليفعل شيئا... أنا طلبت منه ذلك".

- "حسنا، أكملي".

- "عندما قال لي كل ذلك، لم أعرف ما ينبغي عليّ قوله، لكنني كنت سعيدة أيضا، لأنني أردت بالفعل أن أخبركم عن حقيقتي، لكنني لم أكن قد وجدت طريقة مناسبة، أو... أنني لم أكن متأكدة من أنكم جئتم حقا لإنقاذ ذلك العجوز المسكين".

اتسعت عينا خولة بذهول شديد فراحت تسألها بخوف مسبق من الإجابة:

- "أي عجوز تقصدينه؟".

وقالت مايا:

- "آسفة... إنه والدك، أليس كذلك؟".

ونبض قلب خولة نبضة قوية، ونظرت إليها رشا بأسى، فيما أردفت مايا قائلة:

- "أخبرني الأمير جابر...".

غطّت مايا في صمت عميق للحظات ثم عادت تقول بعدها :"قبل سنوات، كان عمي قد بنى هذا الكوخ لنفسه، كان يحب الصيد كثيرا، ولم يكن يهتم أبدا لأمر الإمارة، أراد فقط أن يأتي إلى هنا ويقضي وقته في صيد حيوانات الغابة، بأسهم جميلة كنا نصنعها معا، كنت لا أزال صغيرة جدا، لم أكن أعرف ما الذي أفعله، لكنني كنت أستمر بالتلويح بأعواد

الخشب يمنة ويسرة، فيما ينظر هو إلي ويضحك، كانت الأعواد أكبر مني... هو لم يرزق بأطفال أبدا، لذلك أصبحت ابنته المدللة، لكنه في أحد الأيام اختفى فجأة، لم يقل أحد أين ذهب، حتى والدي".

وتبادل الثلاثة نظرات سريعة فيما بينهم.

- "أظن أنه قام بقتله"وسقطت من عينها دمعة دافئة أخفتها بيدها الصغيرة :"والدي يحب السلطة بشكل مفرط، لا يمكنه أن يدع شخصا على قيد الحياة وهو يشك في أنه سوف ينازعه السلطة في وقت ما... كانت أمي امرأة جميلة جدا ولطيفة، و... لا أعرف... كان عمي قد أخبرني عنها، كانت تحب أبي كثيرا، وحينما أرادت أن تنجب منه طفلا فإنه رفض ذلك رفضا قاطعا، وهددها، لكنها صدّقت بأنه يحبها بدوره، وبأن غضبه سوف يختفي عندما يسمع صوت صراخ ابنه، هي من براءتها لم تعرف سبب رفضه، لم تفهم أنه خاف من أن هذا الطفل و إن أتى، فسوف قد يأخذ مكانه ويسلب منه الإمارة، هو مهووس بذلك العرش الذي يجلس عليه طوال الوقت ولا يفارقه، وكأنه سيعيش إلى الأبد، إنه مهووس به جدا"لحظات صمت أخرى، وعادت تقول بعدما ازدردت ريقها ": حملت بي أمي دون أن تخبره، وعندما ظهر الحمل عليها طلب منها أن تسقط الحمل وهددها،

لكنها رفضت، واستمرت في الاحتفاظ حملها،لكن في آخر فترات الحمل كان قد اشتد غضبه، وحاول ضربها، لكن عمي قام بحمايتها، وطلب منها أن تختفي لفترة حتى تضع مولودها، وذلك ما حدث... عادت إلى القصر بعد ولادتها لي مباشرة، لكنها اختفت بعد يوم واحد، دون أن يعرف أحد بما وقع لها... كنت لأختفي أنا أيضا، لكن عمي أخذني من القصر وأودعني لدى أسرة جندي يعرفه معرفة جيدة، وأوصاه بأمري، والذي هو الآن حارسي الشخصي... بعدها بأعوام قليلة، اختفى عمي هو الآخر... والآن أنا الوحيدة من الأسرة الحاكمة، إلى جانب والدي طبعا... إنه لم يدع أحدا من أقربائه خوفا على عرشه، وأعرف أنه سوف يتخلص مني أنا أيضا في يوم ما، حالما يشعر بأنني قد صرت قادرة على تحمل مراسم التعميد لاستلام الإمارة".

ارتبك ليث للحظة، ثم راح يقول وقد هدأت أخيرا نبرة صوته:

- "هل، هل أنتِ الآن تعملين ضد والدك؟ هل قمت بترتيب لقاء بين الأمير جابر وبين الجاسوسة التي أودعها في قصركم؟".

وحركت مايا رأسها بإيمائه صغيرة، ثم راحت تضيف بقولها:

- "ليس تماما، لكن... أعرف أن ذلك العجوز يخصكم، وقد كانوا يعذبونه طوالا الوقت بلا سبب، قيل أنه جاء ليتجسس علينا، لكنني لا أصدق ذلك، لقد نظرت في عينيه مرة، لم يكن يبدو أبدا وكأنه شخص قد يفعل ذلك، لكن حديثا غريبا دار بشأنه، أخبرني حارسي أن والدي لم يستطع قراءة أفكاره... ذلك غريب جدا، أليس كذلك؟".

وقالت خولة:

- "هل أنت متأكدة من هذا؟".

وقالت مايا:

- "ذلك ما تداوله الجنود بينهم... أردت دائما أن أنقذه، لكن الحراسة مشددة، ولا يسمح لي بدخول تلك الغرف، إنها حفر محفورة في الصخر ومظلمة، ورطبة وباردة، وهي تعد عذابا في حد ذاتها".

وقالت خولة بنبرة سريعة مرتعشة:

- "وهل تعرفين أي شيء عنه الآن، هل هو بخير؟".

وهزت مايا رأسها مرة أخرى، لكن هذه المرة، يمنة ويسرة:

- "لا أعرف، إن حارسي الشخصي يعمل جنديا في الجيش، وقد أوصاه عمي بحمايتي، كنت أطلب منه أن يتفقد العجوز من وقت لآخر، لكن في

آخر مرة كانوا قد نقلوه من سجنه بشكل سري، ولم يقدر على تحديد مكانه بعد ذلك".

أصاب خولة إحباط بدل نظرتها، فحطت بصرها على الأرض وشردت بعيدا، ذلك بينا استتلت مايا تقول في حسرة:

- "في الواقع لا أعرف ما الذي حدث، ألا يفترض بتلك المرأة أن تعمل لصالحكم؟ عندما أخبرتها أن الأمير جابر يريد لقائها لم يبدو عليها أنها تهتم كثيرا لذلك، في الواقع تغيرت تصرفاتها كثيرا منذ تزوجها والدي، حتى نظراتها أصبحت تبدو خالية من...".

لم يقاطعها أحد.

- "عندما رأيتكم في الغابة، في ذلك اليوم، فهمت بسرعة أنكم جئتم لإنقاذه، لقد فرحت كثيرا، لكن كان علي أن أتأكد من ذلك، ومن حسن الحظ أنّ الأمير جابر رجل فطن وذكي جدا، كما أنه... كما أنه يحبكم كثيرا، إنه لم يرد تعريضكم للخطر".

وقال ليث وقد صار الغضب على وجهه:

- "تبا، لقد غير الخطة بأكملها، فقط لأنه ظن أنما قد عثر على طريقة أخرى للوصول إلى العجوز دون تعريضنا للخطر".

وقالت مايا بصوت هادئ:

- "أجل، أظن أن هذا ما حدث".

وقالت رشا:

- "فماذا نفعل الآن إذن، كيف سنقدر على تحديد مكانه؟".

قالت مايا:

- "لقد أرسلت حارسي ليبحث في الأمر".

وقال ليث:

- "لكن هل تثقين فعلا في هذا الرجل، ثم لماذا لم تخبرينا في البداية، لو لم يأتي الغراب، إلى متى كنت ستخفين الأمر عنا؟".

وحنت مايا رأسها تعتذر:

- "آسفة، لم أرد إخافتكم، لقد أردت أن أتأكد مما وقع فعلا، ولهذا أرسلت حارسي وأتيت وحدي إلى هنا... أجل، إنني أثق فيه بشكل كامل، لأن عمي وثق في عائلته، لقد قامت زوجته بتربيتي، كنت بمثابة ابنة لهما".

و حنى ليث رأسه بدوره، وأتى صوته وقد صار أقل حدة:

- "إنني أعتذر بدوري، آسف بشأن ما حصل قبل قليل، لقد تحمست قليلا، عندما يتعلق الأمر بسيدي، فإن الغضب يسيطر علي كثيرا، ولا أقدر حينها على أن أتحكم لنفسي".

- "أتفهم هذا".

قالت مايا في صوت جميل هادئ، ثم جاء صوت رشا:

- "المهم الآن هو ما الذي سنفعله، وإلى متى سننتظر خبرا من ذاك الرجل؟".

قام ليث واقفا وقال بعدها:

- "لن ننتظر كثيرا، بحلول الليل، سوف نتحرك للبحث عنه، إن لم يأتِنا ذلك الحارس بخبر".

بقيت خولة غارقة في صمت مرير وهي تجمع يديها في حجرها، بينا عيناها منكستان لأسفل، كان الألم في قلبها قد تضاعف، إن فرص النجاح باتت تتضاءل، راحت تفكر، من سينقذ الآن من؟ تنامى في صدرها حزن وقلق، وأي صورة سوف ترسمها في مخيلتها لتنظر إليها، هل صورة والدها وهو مكبل في حفرة مظلمة في موضع ما من تلك الجبال العالية، بينا يجاهد

نفسه ليتمكن من أن يبتلع ريقه ليجفف حلقه، أم صورة الأمير جابر حين أحاط به جنود أرض الرياح من كل جانب، ثم وهم يكبلونه ويسوقونه أمامهم، شعرت بحزن عارم، وسرت في جسدها رعشة باردة، لكن أتت يد رشا دافئة لتمسك يدها، وفتحت خولة عينيها في تلك اللحظة، نظرتا في عيني بعضهما، وقالت رشا بنبرة تيمُّن:

- "سيكون كل شيء على ما يرام يا خولة... لا يأخذك القلق".

إنقاذ

جاء الليل يرخي سدوله، وعم هدوء مرير في أرجاء الغابة، من خلف الكوخ، جاء ليث يعود من قضاء حاجته فدفع أغصان الشجيرات أمامه وجعل يصيح وهو يلتف عند الزاوية:

- "هيا بنا لنتحرك، سوف ننطلق الآن لإنقاذه".

ووقفت الفتيات وقد كنّ يجلسن غارقات في التفكير على مدخل الكوخ، شدت خولة أصابع يديها في قلق، بينا قالت رشا في قلق:

- "لننتظر بعد قليلا".

وقال ليث:

- "لا أحسبني قادرا على هذا أيتها الفتاة المحاربة، إن سيدي أسير هناك في مكان ما، وأنا أنتظر خبره من رجل لا أعرفه، لو كنتم استمعتم إليّ منذ البداية لما أضعنا كل هذا الوقت بلا طائل".

وقالت مايا وهي تقوم واقفة:

- "لقد أتى".

كانت تنظر في عمق الظلام حيث يختنق الطريق المؤدي خارج الغابة نحو ظل أسود راح يقتحم حديثهم.

وقف أمامهم رجل طويل الهيئة ذا وجه صلب وملامح حادة، كان يرتدي درعا بني اللون ويضع يده التي كان عليها أثر حرق واضح على سيف كان يعلقه في خاصرته وقال ينظر في وجوههم جميعا واحدا تلو الآخر:

- "أطمئنكم أنه بخير، لكنه محتجز في أحد الغرف، لم يتم استجوابه حتى اللحظة، لكن غدا صباحا سوف يتم نقله إلى المرتفع الخامس، إلى القصر ليمثل أمام الأمير شهاب، ولا أحسب أن مسائلته سوف تطول كثيرا".

ونطقت خولة تقول وقد اضطرب صوتها:

- "ما الذي تعنيه بأن مسائلته لن تطول كثيرا".

وقال الرجل بمثل تلك النبرة التي يبدو فيها غير مكترث:

- "أعني أنه سوف يقوم بقتله".

وقالت مايا:

- "في أي صف وضعوه يا مُثاب؟".

وقال الحارس:

- "الثامن يا سيدتي".

أرجعت مايا عينيها وراحت تفكر، ونطق ليث ضاغطا على يديه بقوة:

- "لا حل آخر إذن، سوف نضطر للقتال حتى نخرجه... لكن لحظة، إنها أرضكم، ألن تحاولا منعنا من هذا؟".

- "لا".

قال مُثاب وعيناه لا ترمشان أبدا، ثم نظر بعدها نحو مايا، لكن عاد ليث يقول بعد ذلك:

- "ما حال تلك المرأة، هل هي حقا صارت تعمل لصالحكم".

- "بل لصالح الأمير شهاب، أنا مثل سيدتي الصغيرة، لا أتفق مع ما يفعله".

- "فإذن قد قامت بخيانتنا فعلا".

- "أجل، إنها قد ارتدت عنكم، ولا يمكنكم الوثوق بها بعد الآن يا سيدي".

- "هذا غريب حقا، لكن، لكن... رغم ذلك، سوف أقتلها بيداي هاتين، إنني سوف...".

كذلك راح ليث ينبش الهواء بأسنانه، فأتاه صوت رشا الهادئ:

- "ما الذي سنفعله إذن، هل نتبع المسار الذي رسمته لنا في البداية".

وقال ليث يرفع عيناه اللامعتان نحوها:

- "ليس لدينا حل آخر، سوف ننزل إلى الضباب لنتبع الدرب علّه يوصلنا إلى غايتنا".

ونطق مُثاب وقد أدهشته الفكرة:

". هل كنتم تخططون لاستعمال المسار السفلي حقا؟".

وضيق ليث عينيه في وجه الرجل.

فعاد مُثاب يقول بعد ذلك:

- "لا بأس، إنني في صفكم أيضا".

ثم أطبق فمه دون أن يكون على وجهه تعبير واضح، وساد بعدها صمت بدا طويلا جدا، حتى قالت خولة:

- "ما الذي ننتظره، لنمضي إذن".

- "لدي فكرة"قالت مايا فجأة :"لكن عليّ أن أسألكم، هل تعرفون ما الذي ستفعلونه حينما تصلون إلى هنالك؟ هذا إذا تمكنتم من الوصول حقا".

وقال ليث وقد بدا مرتبكا:

- "حسنا، في الواقع"وإنّ ارتباكه هذا إلا لأنّ خطتهم كانت تقضي بالوصول إلى المرتفع الخامس مباشرة بغية أسر الأمير شهاب وأخذه كرهينة لطلب تحرير والد خولة، غير أن ظهور مايا وما وقع للأمير جابر قد عطل كل ذلك، فإذن فكر ليث فيما يمكن قوله، فكر كثيرا، ثم انتهى إلى :"إنّ تلك الخائنة سبق ودلتني على طريق الضباب حينما كنت هنا في السابق، لقد أرتني بدايته، قالت إنه يوصل إلى المرتفعات الخمسة كلها، كانت خطتنا تقضي باستعمال ذلك الطريق والوصول إلى المرتفع الرابع، حيث تقع تلك الغرف، ولأن ما رسمناه كان يتضمن وجود الأمير جابر معنا، فإن ما كان يمكن أن نفعله بعد وصولنا إل هنالك لا يعد مشكلة، باعتبار أننا سوف نقوم بتحريره".

وقالت مايا:

- "لكنك قلت الآن بأن نيفين هي من دلّتك على طريق الضباب أليس كذلك؟ حسنا، هي لا تعرف الطريق حقا، وإنما تعلم بوجوده فقط، وقلة قليلة من يعرفون بأمره، لكن بما أنها الآن تعمل ضدك، فلا بد إذن أن تكون قد فعلت شيئا بخصوصه".

وأكملت رشا حديث الأميرة الصغيرة:

- "لقد وضعوا حرسا عليه، أليس هذا صحيحا؟ أو أنه قد تم تدميره".

وقالت مايا:

- "أجل... بات يوجد حرس في آخره".

وقال ليث:

- "فعلا!! هذا سيء".

- "لا بأس، فلدي خطة"قالت مايا، فنظر للجميع نحوها بعيون ذاهلة :"لكنها ستنجح فقط إذا تعاون سيدكم معنا".

قال ليث:

- "لكن كيف ذلك؟".

وهنا رفعت مايا بصرها نحو السماء وراحت كأنما تبحث عن شيء محدد، ونطقت خولة حينما فهمت ما كانت تقصده بقولها:

- "هل تقصدين أن نرسل له رسالة؟".

- "أجل".

وقالت رشا:

- "الغراب إذن !".

وقالت مايا:

- "هل بإمكان أحدكم مناداته؟".

وقال ليث:

- "ربما يمنني ذلك... لكن علينا إيجاده أولا".

قالت خولة:

- "لابد وأنه يحلق قريبا من موضع حبس الأمير جابر".

وقالت مايا:

- "حسنا، سوف أخبركم بما سنفعله".

درب

في موضع عالٍ من أحد جبال المرتفع الرابع، حط الغراب بجناحيه الأسودان على لسانٍ صخري ينبثق من فوق نافذة صغيرة مربعة بحجم يد مفروشة يصل من خلالها نور القمر كعمود فضي طويل ويصب في زاوية غرفة ضيقة ومظلمة كان يجلس فيها الأمير جابر وقد تجرد من درعه وقناعه وراح في تفكير عميق بينا يأخذ أنفاسا ثقيلة متباعدة، كان يجمع يديه في حجره، وحينما أتاه شيء ما يزحف على الأرض أمامه، فإنه لم يحرك ساكنا، ولا تحسس منه ولا فتح عينيه لينظره، لقد ظل يجلس متحجرا، لفترة طويلة، حتى حين وثب الغراب من مكانه وراح ينعق في كبد السماء المظلمة، حينها فقط رفع الأمير بصره نحو فتحة النافذة، ونظر بعينه الحادتان اللتان كان يشع منهما وهج فضي باهت، أكثر تفكيره كان منصبا على رفاقه، لكنه كان على ثقة من أن مايا سوف ترشدهم وتساعدهم، إنه ظل يتذكر طريقة حديثها، إنها لا تشبه أبدا أن تكون فتاة مخادعة، إنّ تصرفاتها أبعد من ذلك، لقد نزلت بهم في أرض تقع عميقا تحت الضباب البارد، إن منحدرا خفيا كان ينزلق من موضع في الحافة الأولى، حيث تنتهي أطراف الغابة،

فمن بين الأجمات المتعانقة، والنباتات الخضراء ذات الأوراق الكبيرة، وجدت مايا طريقها الذي حفظته بحرص بالغ، وقادتهم عبره نحو جذور الأعمدة الأولى التي تشكل جبال المرتفع الأول، قالت مايا وهي تحاذر السير في خط رقيق تحفه حفر كثيرة:

- "توجد الكثير من الحفر، بعضها مخفية بين الشجيرات ولا يمكن رؤيتها إلا بعد فوات الأوان، لم يُطلع عمي الكثير من الأشخاص على هذا الطريق منذ اكتشفه، فلم تتح له الفرصة... ربما صرت بعده أنا الوحيدة التي تعرف تفاصيله".

نظر ليث يمنة ويسرة، فأحس بدوار يلدغ رأسه وأسرع يصرف بصره أمامه، إن الحفر من حولهم عميقة ومظلمة، ويصبح منظرها مخيف جدا، كأنما مُلأت بزيت أسود، كان يحمل حبالا ثقيلة على كتفيه بينا يسير في المؤخرة، وأمامه خولة ورشا، كان مُثاب يحمل مصباحا زيتيا في يده، وكانت مايا تسير أمامه مباشرة.

إن خط السير هذا لا يتسع لشخصين في وقت واحد، ولا يمكن الرؤية لأبعد من مترين أو ثلاثة، حتى بوجود الإنارة، الأجمات من كل جانب، والضباب يغطي الرؤية، والهواء بارد ويصبح أثقل مع تقدمهم، مايا كانت

تحفظ الطريق جيدا، ولم تكن لتخطئ خطوتها، وراحت تتم كلامها بينا تمشي بثقة، قالت:

- "خاف الناس دائما من النزول إلى هنا، لكن عمي كان يحب المغامرة، وكان يظن أن هنالك حيوانات تصلح للصيد تعيش هنا بالأسفل، لقد أحب هذا المكان كثيرا، يقال في الأعلى أن الجبال ليس لها قاع أبدا، فلم يسبق لأحد رؤيته، ذلك غير ممكن، كنت أُلقي مع عمي الحجارة فنسمع أصواتا تشبه صوت الماء في الأسفل، وكأّن ثمة بحيرة كبيرة تحتنا، لكن تلك الأصوات اختفت بعد ذلك،و لم يعد بإمكاني سماعها".

ونطق ليث من الخلف تماما:

- "أظن أن الطريق الذي دلتني عليه نيفين بعيد من هنا، أيتها الصغيرة".

وقالت مايا:

- "أجل، أخبرتك أنها لا تعلم تفاصيله حقا".

وعاد ليث يغمغم بقوله:

- "هذه الأرض التي نسير عليها صلبة مثل الأرض التي في الأعلى أليس كذلك؟".

- "فعلا...".

- "لو أننا نقدر على السير بسرعة أكبر".

- "هل أنت تريد إنقاذ ذلك الرجل؟".

- "إنه سيدي".

- "تلك إذن فكرة سيئة".

سكت ليث بعدها، وواصل سيره، كان مثل حطّاب في غابة، لقد بدأ ثقل الحبال يتعب كتفيه، وصار يبحث بعينيه الثقيلتين عن الأوتاد في جنبات الطريق الضيق، أين ينتشر السديم الأبيض، وحيث راح الدرب يتسع أمامهم فجأة، أتى صوت مايا وهي تخفف من سيرها:

- "هذا أول جبال المرتفع الأول".

ونظروا فإذا بجذع صخري عال يرتفع أمامهم، محاطا ومغلفا بنباتات متسلقة، التفوا حوله، ووجدوا عددا من الجذوع الصخرية العظيمة الأخرى التي كانت تصعد أمامهم منفردة ثم تتصل مع بعضها في الأعلى، وقف ليث وخولة ورشا ذاهلين في المشهد، إن جذوع الجبال رائعة مثل أعلاها، إنها تدفع المرء لتأملها، لها لهيبة غريبة، غير أنهم كانوا يبدون الآن مثل خيط نمل صغير يعبر بين سيقان كثيرة، مشوا بين الجبال الصخرية الغارقة في الضباب لمسافة كيلومترين تقريبا، في أحيان كثيرة كانوا يسمعون

أصوات حشرجات خفية، بينا يتحرك العشب أمامهم، كانت بعض السناجب غريبة الشكل تظهر من الأرض فتصعد النباتات المتسلقة بسرعة لتختفي خلف جيوب صخرية، تماما حيث كانت تظهر أفاعي خضراء اللون تراقبهم وهي تشتم الهواء البارد بألسنتها الصغيرة، ثم جاءت القردة من كل موضع، وبقيت خلف الشجيرات تتأمل الغرباء من مبعدة، ونطقت مايا تقول حينئذ:

- "اكتشف عمي هذا الطريق عبر تتبعه لبعض القردة، لقد كان هنالك قرد مميز يراه كثيرا في جبال المرتفع الثالث، فهي تذهب إلى هنالك لتسرق طعامها، لكنه وجده في إحدى المرات على مقربة من الكوخ برفقة جماعته، لديه جرح عميق في وجهه، كان هو قائد تلك الفرقة، كنا نظن أن المجموعة التي تعيش هنا في الأسفل هي من تصعد إلى قمم جبال المرتفع الثالث، لكنه فهم أن القردة وجدت لنفسها طريقا خاصا وراحت تستعمله للتنقل بين الغابة وقمم المرتفع الثالث، ولذلك قرر أن يتبعها".

- "ولكنّ حظه كان جيدا إذ لم تزِل قدمه في واحدة من هذه الحفر".

قال ليث من مؤخرة المجموعة، وردت مايا في ابتسامة:

- "إنه حذرٌ جدا وذكي أيضا".

- "ذلك واضح".

أضاف ليث فيما ينظر يمنة ويسرة، إلى الحفر المظلمة، والقريبة، الآن بعد عدة دقائق أخرى توقفت مايا فجأة أمام جذع صخري ضخم جدا، ورفعت بصرها لأعلى تقول وهي تتنهد:

- "ها قد وصلنا... هذا أحد جبال المرتفع الرابع، أظن أن السجون تقع تماما فوقنا".

وقف الجميع الآن في خط واحد أمام الجبل، يطالعونه بعيون مفتحة، وقالت خولة تسأل:

- "الآن ماذا نفعل، كيف سنصل لأعلى؟".

والتفتت مايا إليها ومدت يدها في الهواء نحو موضع خلف أوراق نبتة كبيرة :"من هنا"قالت ذلك ثم راحت نحو أذرع النبتة فأبعدتها وعبرت نحو الجانب الآخر.

من أعلى

في منتصف الجزء السفلي من الجبل، راح الخمسة يصعدون درجات سلم حجري حلزوني الشكل ظل مخفيا لسنوات في الصخور الصلبة، حيث أبقته النباتات المتسلقة عصيا على الأعين، لم تكن مايا قد استخدمت هذه الأدراج منذ فقدت عمها، والآن غطّت أطرافه طحالب خضراء وأفرع قصيرة، كان الحارس مُثاب لا يزال ينير الطريق بالمصباح الذي يحمله في يده، ولا يفتأ يضع يده على ظهر مايا ليسندها، قال القائد ليث لاهثا بينا يثني ركبتيه بصعوبة ليلحق بهم:

- "بالتأكيد... عمك هو من... أصلح هذا الدرب بنفسه".

وقالت مايا تجيبه من مقدمة السير:

- "أجل".

- "رائع... إنه... إنه... رجل... جيد، لقد أحسن صنعا، بحفر هذا السلم".

وقالت رشا:

- "ولماذا تقول هذا الآن يا ليث؟".

- "أشعر... بأنني أصعد الجبل بساقي حصان يا آنسة".

- "لكن ذلك سيفيدك".

- "أجل... لو كنت حصانا، لكن... والحال هذا، فإنهما ثقيلتان جدا، وأنا لم أبدأ في استعمالهما إلا منذ ساعة".

ضحك الجميع لكلام ليث، منهم من غلبه صوته، ومنهم من اكتفى بابتسامة، كان الضباب المظلم فوقهم قد بدأ يخف تدريجيا، فقد كانوا يصلون إلى أرض المرتفع، وحين صار بمقدورهم رؤية الأدراج دون الحاجة إلى المصباح الزيتي الذي كان في يد مُثاب، فإنّ مايا طلبت منهم أن يخفضوا أصواتهم أيضا، وأطفأ مُثاب المصباح بعد ذلك وتقدم يطل برأسه الغريب من خلف صخرة ناتئة، مضت لحظة والآخرون ينتظرون في الأسفل، ثم أتى صوت الحارس خافتا ومحاذرا:

- "الطريق خالٍ".

الآن كانوا قد خرجوا من بحر الضباب إلى أرض منبسطة في أحد جبال المرتفع، غير أنه لم يكن مكانا جميلا يحسن أن يرتاح فيه شخص هارب أو متسلل، عدا ذلك، فإنه كان لا يشبه شيئا أكثر من مخرج سري لا يُتوقع أن يسلكه عدو أبدا، إن الأدراج انتهت بهم إلى سفح عالٍ، تلتصق بطرفه حافة

خطرة، طريق بعرض شبر واحد، ويكفي المرء أن يعطس لكي يسقط مباشرة نحو الأسفل، ويغرق في قاع الهاوية.

كان الهواء عليلا في الأعلى، وطمأنهم مُثاب أن الريح لا يمكن أن تشتد في ليلة مقمرة كهذه، فقال ليث متهكما وهو يلصق بطنه ويديه في صخرة ناتئة :

- "كما قلت قبلا، ذلك الرجل يعرف جيدا كيف يحفر الصخور الوعرة، إنّه متمرس".

وقالت رشا:

- "في رأيي أنه أنسب مكان أيها القائد، وربما لن يقدر النسر على رؤيتنا هكذا".

وتوقف ليث للحظة، وراح ينظر فوق رأسه، وقف يمد أطرافه الأربعة كأنما يرقد واقفا على بطنه، وقال بدهشة:

- "فعلا".

كان للجبل ظهر بارز يغطي منظرهم بشكل كامل، وتنهد ليث إذ ذاك في امتنان عظيم لذلك الرجل وأردف يحدث نفسه:

- "تبا، لقد نسيت أمر النسر تماما".

وقالت رشا:

- "أظنك تود قول شيء أيها القائد ".

وقال ليث:

- "كنت سأسألك أين نحن الآن يا آنسة، لو كنت أعرف أن لديك جوابا".

- "ربما نحن الآن نلتف خلف الجبل، أيها القائد".

وقال ليث:

- "إذا كانت هذه الصخور العظيمة التي فوقنا هي ظهر الجبل، أو حقيبته، وكان المرتفع الخامس يقع تماما خلفنا، فلابد من أننا نلتف حوله فعلا ".

وقالت خولة:

- "انظرا هنالك".

تماما إلى جسر عظيم بدا من الخيال والقصص، كان يمر من فوق الضباب العائم، ينطلق من جبل بارز في حجمه من بين الجبال السبعة التي تشكل المرتفع الرابع، وينتهي إلى سلسلة جبلية أخرى بعيدة تظهر منها إلا أعمدة رمادية أو ذات سواد باهت، ونطق الحارس مُثاب يقول حينئذ ليجيب استفسارهم:

- "ذلك الجسر هو ما يربط بين المرتفع الرابع والخامس، إنه أكبر الجسور جميعا".

وقالت خولة وفي صوتها تعظيم وعجب:

- "إنه رائع، ولا يصدق، كيف أمكنه صنعه ".

وقال الحارس:

- "لقد قام أجدادنا الأولون بتركيبه هنالك بمساعدة النسر وليس لوحدهم، فذلك يفوق مقدرة أي بشر".

كان منظر الجسر لوحده مهيبا، ناهيك عن موضعه بين الضباب والسماء المقمرة، إن عليه حبالا ممتدة، قوية وصلبة، فكأنما جبلا من المرتفع الرابع وآخر من الخامس يوشكان أن يتعانقا فراحا يمدان ذراعيهما نحو بعضهما الآخر، فإذن بين تيههم في جمال المنظر وبين الحذر البالغ الذي كانوا يضعونه في كل خطوة صغيرة يزحفون بها على الطريق الخطر، أتى صوت مايا لينقذهم من ذلك التعب الذي لم يكن يبدو وكأنه سينتهي قريبا فراحت تقول فجأة وهي تثب لتخرج من الحافة وتختفي خلف لحاف من النبات المرتفع الذي كان يغطي واجهة الجبل:

- "لقد وصلنا".

قالت ذلك ووقفت بعدها على أرض منبسطة، يكسوها عشب قصير بلون أخضر قاتم، وأتى الآخرون بعدها واحدا تلوى الآخر، كان ليث آخرهم، وسريعا ألقى الحبال من على كتفيه وراح ينظر نحو الجبل العظيم الذي كان ينطلق الجسر من خلاله:

- "أرى نورا في ذلك الجبل، لا بل أنوارا كثيرة يا صديقي".

وقال مُثاب وهو يأتي ليقف بجانبه:

- "تلك أنوار معسكرات الجيش، ففي كل جبل توجد فرقة تعسكر عليه".

- "حقا، حسنا، كان من الرائع أن تقول ذلك، هذا يعني أننا لن نلتقي بهم أبدا".

- "أجل، طالما لم يُكشف أمرنا، لن يحدث ذلك".

قال مُثاب ذلك واستدار عائدا، وذهب بجانب الفتيات اللواتي كنّ تقفن على طرف لسان صخري تطللن على قرية صغيرة أسفل منهن، وقالت مايا حينئذ تشير بيدها بعيدا:

- "ذلك هو الجبل الذي تتواجد به غرف الأسرى".

وقالت خولة:

- "فإذن جابر محتجز هنالك الآن أليس كذلك؟".

وقالت مايا بصوت لطيف صادق:

- "حقا أنه ليس عليك أن تقلقي بشأنه، إننا سوف ننقذه، أعدك بهذا".

ورفعت يديها عن اللسان الصخري بعد ذلك وعادت نحو المنطقة الآمنة، وكان ليث حينها يفك الحبال منشغلا:

- "ما الذي تفعله أيها القائد؟".

وقال ليث يجيبها:

- "لا شيء، لكنني أنني بت الآن أعرف جيدا كيف سنهرب، في حال وقع أمر سيء".

إن ليث لا يكف عن طرح إجاباته بشكل يجعلها تشبه النكات المضحكة، ذلك أنه وفي غمرة القلق الحاصل، استطاع أن يرسم البسمة على وجوههم مرة أخرى، فإذن وهو منهمك فيما يفعل، وقف الآخرون حوله يتفرجون فيه بوجوه مبتسمة، وما إن انتهى حتى وقف يقول في حماس متقد:

- "الآن انتهيت من هذا، أين وجهتنا التالية، أيها الرجل الجميل الرائع، أيتها الأميرة الصغيرة".

وقالت مايا تجيبه وهي تشير بإصبعها بعيدا:

- "علينا أن نعبر نحو ذلك الجبل، دون أن يلحظنا أحدا".

وقال ليث:

- "لا أحد سيلحظنا، إن هذا الجبل مقفر كما أظن، أليس كذلك؟".

وقالت مايا:

- "توجد بعض القرى الصغيرة تحتنا مباشرة، لا يوجد جبل مقفر هنا، جميعها مأهولة، هيا بنا".

إنقاذ

راح الخمسة بعد ذلك - تحت غطاء الليل - يتسللون هابطين عبر ممرات ضيقة وغير واضحة، كانت أقدامهم تنزلق في أحيان كثيرة، ذلك أن الصخور صارت زلقة مع ثلث الليل الآخر، كانت أنوار المشاعل على جنبات الأكواخ في الأسفل تهتز طربا على وقع الريح الخفيف العابر.

لم تكن ثمة حركة في الأسفل، أو على الأقل ذلك ما لم يقدروا على ملاحظته، إذ بدت القرية نائمة، ولم تكن تحتوي على أكواخ كثيرة، فلم يتعدى عددها العشرين كوخا، راحوا الآن يقفزون من فوق لسان صخري مثل كرات صغيرة تدفع بعضها، وحطوا أرجلهم على تراب القرية، خلف مربط فرس، أين كان ثمة زوجان من الأحصنة النعسة، مروا تواليا بجانب المربط إلى صف الأكواخ يتسللون في صمت مثل الأشباح الهاربة، حتى اللحظة، كانت مايا على صغر حجمها تتقدمهم، لكن بوصولهم إلى طرف القرية، رأوا رجلان يجلسان حول نار هادئة، كانا حارسا مدخل القرية على ما يبدو، كان ذلك يظهر جليا في لباسهما، لكن فجأة وقف أحدهما وراح يسير نحو الحافة ليتبول، وقال مُثاب وقد رأى فرصته في ذلك:

- "سوف أذهب، وأنت يمكنك تولي أمر الرجل الآخر، أليس كذلك أيها القائد؟".

وقال ليث وكان بالفعل قد بدأ بالتحرك:

- "من دواعي سروري".

ظلت الفتيات مختبئات خلف مخزن كبير مغلفة جدرانه بالتبن والطين الأبيض، تراقبن المكان بصمت وحذر، وجاء غراب الأمير جابر فجأة وحط على حافة سقف المخزن، وراح يقلب رأسه الصغير الأسود فيما يحدث، مر بعض الوقت حتى انتهى كل من مُثاب وليث من شغلهما، وأتى ليث يتسلل بين الأكواخ على أطراف أصابع قدميه، بعدما ترك الرجل ساقطا فوق بوله، وقد أفقده وعيه بضربة واحدة على مؤخرة عنقه، كان مثُاب والفتيات يجتمعن الآن عند مخرج القرية، وانظم إليهم ليث، ونظر إلى ممر صخري يربط الأرض التي هم عليها بجبل المساجن، وقال بعدها في تهكم:

- "لن أحزر من أين سنذهب".

وقالت مايا في تحدٍ:

- "حقا! لكنني أنصحك بالمحاولة، لأننا لن نسلك هذا الطريق السهل الذي تراه أمامك".

- "أعلم،و لذلك لن أفعل، لأنني ما كنت لأحبذ دربا آخر غير هذا".

- "حسنا، إذا أخبرتك أنه يوجد في نهاية هذا الممر مخيم مليء بالعساكر، فما عساك تفعل بعدها".

- "حينها، ربما يتحتم علينا أن نقفز... نحو...".

ولم يكد ليث ينهي فكرته العجيبة، التي لم يعرف من أين جاءته ولا كيف راح ينطق بها، حتى رأى مايا تسير نحو الحافة فتقفز دون تردد من لحظتها نحو الهاوية، في مشهد عجيب يبعث على الهلع.

أسرع الثلاثة نحو الحافة بأبصارهم الفزعة، غير مُثاب فإنه بقي في مكانه، ذلك أنه كان يعرف ما الذي فعلته سيدته جيدا، وأتى بعدهم في هدوء ووقف بجانبهم وهو يضع يديه خلف ظهره:

- "إنها هكذا، لا تهاب شيئا، ولا تهدأ حتى تنهي ما بدأت بفعله".

قال ذلك بينا يميل برأسه نحو الهاوية، حيث كانت مايا تتشبث بنبات العليق المتسلق والذي كان يغلف جانب الممر الصخري نحو جبل المساجن، أردف مُثاب قائلا:

- "لو سرنا على الممر الآن فسوف يلاحظنا العساكر، إنهم هناك في آخره، ولذلك رأت سيدتي أن نتبع هذا المسار الذي قد بدأت بالفعل بأخذه، ولكنني سأكون خلفها مباشرة، إن أنتم أفسحتم لي مجالا لأنزل".

تنحى ليث عن طريق الرجل، وإذ به يثب سريعا مثل سنجاب طائر نحو العليق فيتشبث به، ومثلما كان الأمر تحت الضباب أيضا، فإن خولة راحت بعدهما وتلتها رشا ثم ليث، وأخذوا يتقدمون على خيوط خضراء قوية كل بأطرافه الأربعة مثل مجموعة من حيوانات الحرباء، لكن في سرعة أكبر بكثير من تلك التي تميزها، الآن وفي غير كبير جهد لاحظت خولة أن مايا بدأت تظهر مواهبها، بل إنها باتت تتصرف بطريقة تشبه أن إصرارها على إنقاذ الأمير جابر يمكن أن يعادل إصرارهم أو أن يفوقه، إنها أميرة هذه الأرض، لكنها رغم ذلك راحت تكيد الدسائس لأرضها مع متسللين غرباء لا تعرف عنهم شيئا سوى أنهم جاؤوا لإنقاذ عجوز يخصهم كانت قد أخذت منها الشفقة عليه مأخذا، إذن فبينا هي في شرودها في ذلك التفكير والحرص البالغ الذي كانت تضعه في كل قبضة تقبضها على حبال العليق بيدها فإنها لم تفق إلا وكانوا قد وصلوا إلى نهاية الممر حيث صار النبات

يرتفع لأعلى، وراحوا بعدها يصعدون معه واحدا تلوى الآخر، حتى انتهوا إلى رف صخري يقع على ارتفاع مائة متر فوق المعسكر.

الآن كان قد نال منهم تعب عظيم من أثر ذلك التنقل، فنزلوا على أيديهم يلقون أنظارهم نحو المعسكر، للحظات فقط، ثم عادوا يتكئون بظهورهم على الجبل ويأخذون أنفاسهم بشراسة، ويتحدثون فيما بينهم، فقط بكلمات متقطعة، إذ كانت صدورهم تحترق من الهواء البارد الذي كانوا يسحبونه.

إنّ هذا الجبل هو أكبر جبال هذا المرتفع، ذلك أنّ له وجه عريض واسع، عامر ومغطى بأشجار ذات خضرة تخفي غرفا كثيرة تحتها، وتربط بين الغرف شبكة من السلالم الحجرية الضيقة، مثل مقطع عرضي لبيت نمل مرتفع، لكن في الأسفل، هناك عند قاعدة الجبل، كان ثمة أكواخ كثيرة وخيام مبعثرة ومخازن، حيوانات أليفة محتجزة وخيول مربوطة في الظلام البارد، وبعض الجنود يمشون في جماعات، وآخرون يجلسون حول حلقات نار تبرز منها أعمدة دخان ضعيفة تتلوى صاعدة.

وقال مُثاب بعد أن انتهى وقت الراحة:

- "علينا أن نسرع، النسر الآن فوق المرتفع الخامس، لكن ما إن تشرق الشمس حتى يبدأ في التنقل فوق كل المرتفعات، أظن أنه بقي لدينا ساعتان فقط حتى ذلك الوقت".

وقال ليث لاهثا:

- "أجل، فليُذَكّرنا أحدكم، ما كانت الخطة؟".

وأتى صوت مايا خافتا:

- "كان الغراب يحوم قبل قليل فوقنا".

وقال ليث وقد علت همته:

- "لنرى، إن كنت أستطيع التصفير بشكل لا يفضح أمرنا".

قال ذلك وهم بالوقوف بعدها، لكن وقبل أن يفعل ذلك، أتى الغراب فجأة يرفرف بجناحيه أمامهم، وحط بعدها على رأس صخرة ناتئة، تطل تماما على المعسكر الذي في الأسفل، ونعق نعيقا حادا ومرتفعا، وسكن الجميع في أماكنهم، لكن ليث جلس على ركبته يحاول تهدئة الغراب و إسكاته:

- "سسس..."وأخذ يصفر بأقل صوت وجده في حلقه :"أنت، تعال إلى هنا، تعال أيها الغراب الجميل الرائع، إنني أنا أيضا سيدك، لو لم تكن تعرف".

ونطقت رشا تقول حينئذ:

- "ما الذي تفعله؟".

- "دعيني أتولى هذا، إنها مهمتي... اسسس، تعال إلى هنا".

لكن الغراب نعق نعقة كادت تصم آذانهم، وراح كأنما فزعا يرفرف في مكانه، وتراجع ليث حينها بينا يغمغم:

- "أيها الحيوان الملعون الأسود".

وقفت خولة وراحت تدنو من الغراب بحذر، وأتى صوت رشا من الخلف قلقا:

- "خولة!!".

لكنها لم تلتفت، وواصلت سيرها، وقال مُثاب في صوت بدا عامرا بالقلق:

- "سنكون في ورطة كبيرة إن لاحظه العساكر...".

لكن وبشكل غير متوقع، نزل الغراب إلى الأرض من تلقاء نفسه وراح يتقدم بقفزاته القصيرة نحو خولة، مشى إليها وأحنى رأسه أمامها مثلما أنه يقدم التحية، ورفعته خولة بيديها وراحت تمسح على رأسه الصغير البارع، وحملته بعد ذلك وعادت أدراجها وسط ذهول عظيم منهم.

الآن وقد صار الغراب ينتظر دوره بينهم، فإن مُثاب أخرج طرف بردي من ثيابه وقلما وراح يدون عليه كلمات قليلة مختصرة كانت مايا قد أخبرته بها في وقت سابق، ولذلك راحت تعيد شرح فكرتها:

- "إن طبيب المعسكر هنا سنه كبير، ولا يمكنه أن يصعد نحو المساجن، لذلك سيقومون بإنزال الأمير جابر إلى أسفل، وحينئذ سنقطع طريقهم، طبعا بسرعة ودون إحداث أي فوضى غير مرغوب بها".

وزاد مُثاب يؤكد قول سيدته بنبرة بطيئة مثخنة:

- "دون إحداث أي فوضى".

ثم عاد فأخرج من ثيابه حبتي دواء مصنوعتان من عشبة مطحونة فربطهما في كيس صغير على ساق الغراب إلى جانب قطعة البردي ثم حمل الغراب بعد ذلك وألقى به في الهواء فطار الغراب مرفرفا بجناحيه حتى توارى فوقهم.

ذلك بينا تراجعت الفتيات إلى الخلف وجلسن ينتظرن في ترقب، وتقدم الرجل نحو الحافة وراح يقف بصمت يطل من خلف غصن يبرز من الصخر وأخذ يراقب المعسكر بنظراته الصلدة، بلا خوف أو قلق، فيما ذهب ليث إلى الجهة الأخرى، حاملا حباله الملوية فوق كتفه، نحو الحافة القريبة من ظهر

الجبل، وألقى بها على الأرض وجعل يعالجها، وما إن انتهى من فكها حتى حمل واحدا منها وربط طرفه في غصن قوي خشن، فيما ألقى بذيله، ثم حمل بقية الحبال على كتفه وراح يتشبث بالحبل المربوط نازلا نحو الأسفل حتى توارى تماما عن الأعين، مضى من الوقت نصف ساعة، حتى لاحظ مُثاب بأمرا، إن رجلان من المعسكر ظهرا يصعدان السلالم في عجالة، ولذلك ارتد نحو سيدته يخبرها بالأمر بسرعة، وراحت مايا ترفع بصرها حينئذ لأعلى، وقالت بعد لحظة:

- "انظروا، تلك هي الغرفة التي يبقونها فيها".

وكانت تشير بذلك نحو موضع في الجبل كان فيه شعاع نور يتحرك يمنة ويسرى، تلوح به يد حارس ذلك المسجن، وتقدم الجميع بعدها خلف الشجيرات يراقبون بحذر، وأتى الرجلان يصعدان في نقلات سريعة، وقال مُثاب حينئذ:

- "عليهما الإسراع بإنزاله، ولو أصابه مكروه فإن شهاب سوف يفصل رأسيهما عن جسديهما بطريقة غريبة... فلذلك هما يحاولان الإسراع قدر ما أمكن.."..

مضى بعض الوقت منذ غاب الرجلان في ظلام الجبل، حيث توجها نحو موضع النور المتحرك، كان ثمة ممر صعب يختفي بين الأشجار يؤدي نحو منبسط تلتقي فيه أدراج متعامدة، إحداها تلك التي عبر الرجلان من خلالها قبل لحظة، والآن عاد مُثاب يقول منبها:

- "العبور إلى هناك أمر بالغ الخطورة، فتوخيا الحذر جيدا، الصخور زلقة، ولا تعتمدا كثيرا على الجذوع العالقة، بعضها تنخلع بسهولة".

خرج مُثاب الآن من خلف الشجيرة وراح يتقدم في حرص شديد عبر الصخور المدببة والأشجار المتشابكة، في جسد متسلل، وفي نقلات بطيئة حذرة، يتلمس الصخور ويتشبث بها، بينا تتبعه الفتيات في حذر بالغ، وراحوا تباعا نحو المنبسط، وكما لو أن ذلك شيء لا مفر من وقوعه - ومع أن حديث مُثاب عن خطر الممر لم يكن موجها للأميرة الصغيرة لمعرفتها الشاملة بطبيعة الجبال - فإنه قد خدعها غصن بارز، بدا لها للوهلة الأولى أنّه أكثر من كافٍ لتحمل وزنها، غير أنه انقطع من صخرته وبقي عالقا في يدها، بينا تمسك يد حارسها بيدها الأخرى، وبينا تعود أنفاسهم إلى مجاريها وكانت قد انقطعت منذ لحظة، فإن مايا عادت إلى المسار وشكرت حارسها الذي أنقذها لتوه من أن تهوي نحو الأسفل، لقد

شكرته بكلمة واحدة فقط مع ذكر اسمه، فيما اكتفى الرجل بأن ذكّرها بأنّ ذلك من واجبه، وأكملوا سيرهم بعد ذلك في حذر أكبر، حتى إذا انتهوا إلى المنبسط وكانت تغزو أطرافه أجمات كثيرة وصخور بارزة وتخفوا خلفها، جاء صوت ضجيج يصعد جهة المعسكر، ثم أتبعه صوت بوق حرب دوى في أرجاء المرتفع، وقال مُاب حينئذ بصوت قلق:

- "البوق، هذا إنذار بوجود متسللين، لقد اكتشفوا أمر الحارسان اللذان صرعناهما"قال ذلك ومشى إلى طرف المنبسط فألقى نظرة وعاد بسرعة بعدها:"الجنود ينتشرون على أطراف الممرات التي تربط بين الجبال بغية محاصرتها ثم تفتيشها بعد ذلك".

وقالت مايا ولم يكن في صوتها قلق مثل ذلك الذي كان في صوت حارسها:

- "ليكن، سوف ننهي الأمر ونغادر بسرعة"ثم بدا وكأنها تذكرت أمرا :"على ذكر المغادرة، أين ذلك الرجل؟".

وقالت رشا:

- "لا أحد يعرف، لقد قرر أنه سوف يرسم طريقا للهرب، وأظنه يفعل ذلك... انظروا هنالك".

نظر الجميع من بين أوراق الشجر نحو أعلى السلم، تماما حيث أشارت رشا، وكان قد ظهر الأمير جابر محمولا بين رجلين بينا تنزلق قدماه على السلم ورأسه يميل نحو صدره، اقترب الجنديان اللذان كان يحملانه، وتأهب المختبئون في أماكنهم،وعيونهم تقدح عبر فتحات ضيقة وتلمع بنور ساطع، وما هي إلا لحظات قليلة مرت في لمح البصر، حتى تم الهجوم وكأنما أشباح مميتة قد مرت من خلف الجنديان اللذان كانا يحملان الأمير جابر.

كان مُثاب ومايا قد وقفا بعيدا واكتفيا بمشاهدة ما يحدث، لكنهما خرجا من مخبأيهما بعد ذلك وراحا نحو خولة ورشا وكانتا تأخذان مكان الرجلان في إسناد الأمير جابر:

- "علينا حمله خلف تلك الصخرة، بسرعة".

قالت مايا وهي تراقب الأنحاء بعينيها الصغيرتين الحذرتين جدا.

هروب

أنزلت الفتاتان جسد الأمير جابر على الأرض بهدوء بالغ، وقال مُثاب محدثا عن الجسدين اللذان تركتا في الخلف تماما:

- "سوف أذهب لأسحبهما إلى هنا، إنّ بقاء جسديهما هناك سيكشف أمرنا".

وأومأت له مايا برأسها موافقة، وفي تلك اللحظة ظهر القائد ليث وجاء في لهاث عنيف عندهم، وقالت رشا تسأله:

- "ما الذي كنت تفعله ؟".

ونظر الأخير في يديه وكان فيها قرح واحمرار ظاهر:

- "أجل، ما الذي كنت أفعله، لابد من أنني كنت أقطف التوت في الأسفل".

- "تعال وساعدني، ثمة عمل ينبغي أن ننجزه بسرعة".

كذلك قاطعه مُثاب بقوله، فذهبا معا عبر الشجيرات في تخفٍ، ولحظة أن اقتربا من منطقة تقاطع السلالم فإن أعينهم وقعت بذهول على جندي كان يحمل حربة في يده بينا يعبر السلم الأفقي متوجها نحو مكان تواجد

الجثتين تماما، كانا يريانه من مسافة بعيدة، وراحا يفكران في طريقة مناسبة لمهاجمته أيضا وإفقاده وعيه قبل أن يتفطن لصاحبيه ويأخذ في الصراخ طلبا للنجدة.

على بعد أمتار فقط، وخلف الأشجار التي كانت تخفي أبطال حكايتنا، راحت الفتيات تراقبن الأمير جابر وقد كان يستيقظ لتوه فقام يرفع جسده، وما هي إلى لحظة، ولم يكد يفتح عينيه ليرى ما حوله، حتى ذهب يخبأ وجهه في الظلام فنزع قناعه بسرعة وغطس رأسه في الأرض يتقيأ، وطفقت خولة تقول وقد أصابها فزع لأجله:

- "ما الذي تناوله، تكلمي هيا، أكنت تريدين قتله؟".

- "اهدئي يا خولة".

تدخلت رشا كي تُهدأ من روعها، لكن مايا قالت في بلادة بعد ذلك:

- "لقد تناول سما، ولولا ذلك لما كان الآن بين أيدينا، أخبرتكما ألا تقلقا بشأنه، دعاه الآن يُخرج ما في بطنه، وسيكون قادرا على الوقوف على قدميه بعد لحظة".

تراجعت خولة ورشا قليلا وراحتا تراقبان الأمير جابر وهو يعتصر من الألم، كان يضع وجهه في الظلام وقناعه ملقى على الأرض بجانبه، ومر من الوقت ما بدا لهنّ أنه دقيقة كاملة، حتى أتى ليث ومُثاب يجر كل منها جسدا فألقياهما على الأرض، وقف مُثاب أمامهن يقول في اضطراب بينا عاد مُثاب نحو الشجيرات مرة أخرى فغاب خلفها:

- "هل تحسن حاله؟".

وقالت مايا تطمئنه:

- "سيكون بخير".

وقالت رشا وقد ذهبت عيناها خلف مُثاب تماما:

- "أين يذهب؟".

وقال مُثاب وهو يلتفت خلفه نصف التفاتة:

- "ثمة واحد آخر".

وبحجم ما أثار هذا الواحد الآخر دهشتهنّ، إلا أن صوت الأمير جابر أنساهن الأمر فجأة، إذ راح في تلك اللحظة، يأتي نحوهم من الظلام وقد أعاد قناعه على وجهه:

- "أين هو ليث ؟".

ولم يكد ينهي حديثه حتى ظهر الرجل من بين الشجيرات فوقف عنده مباشرة:

- "هنا، أنا هنا يا سيدي، وآمل أنك لم تكن أحسن حالا مما أنت عليه الآن".

- "أنا بخير يا ليث"قال والتفت بعدها نحو الأميرة الصغيرة :"سأكون مدينا لك، مرة أخرى، وهو أمر لا أحبه".

- "لن تكون مدينا لي، بقدر ما سوف أكون مدينة لك، و إنني متأكدة من أنك تفهم ما أقصد".

- "إنني أفهم، و إنه لمن المؤسف أنك لم تكوني واضحة معي أكثر من ذلك".

- "ينبغي علي أن أقدم اعتذارا، لكن الآن وقد عرفت ذلك، فإنني آمل أن نجد وقتا لأخبرك بكل شيء، وأشرح لك ما لست تفهمه".

بينا قد ترسمت دهشة في وجوه كل من خولة ورشا وليث بسبب من الحديث المبهم الذي كان يدور أمامهم، وبينا ينتظرون ردا آخرا من الأمير جابر بحيث أنهم لن يفهموه أبدا، تماما مثل سابقه، إذ به يغالطهم فيصيح باسم خولة بصوت مرتفع، ثم يثب نحوها مثل نمر ماهر، فيصرع رجلا كان قد

نزل من الأعلى مثل قطرة ماء فجأة فيطرحه أرضا بضربة واحدة، وقام بعد ذلك يصيح بصوت آمر:

- "هيا، تراجعوا جميعا".

وما هي إلا لحظات حتى راح عدد من الجنود ينسلون من أعلى مثل قطرات ماء متتابعة ويتجمعون أمامهم، حاملين سيوفا قصيرة حادة، وناظرين إليهم بعيون مفترسة، وقال ليث وقد زايل وجهه حينئذ غضب عامر:

- "اللعنة، من أين ظهر جاءوا؟".

وقال رشا بصوت جاف :

- "ليس لدينا وقت للقلق بشأنهم، فالنسر آت نحونا".

الآن وقد صاروا في وضع لا يحسدون عليه بحق، كانت الأميرة مايا ومُثاب قد تراجعا إلى الممر الوعر الذي يقود إلى الرف الصخري حتى لا يلمحهما الجنود فيعرفانهما، وتبعتهما كل من خولة ورشا فيما تكفل الأمير جابر وليث بدفع الجنود و إبطائهم، وحيث أن الممر كان ضيقا فإن الجنود لم يتمكنوا من الوصول إليهم أبدا، تراجع الأمير جابر بعد ذلك وتبعه ليث متشبثا بالصخور والأغصان بحذر، بينا يراقبه جنود أرض الرياح شاهرين

سيوفهم القصيرة، وحين اختفى الهاربون جميعهم في الطرف الآخر، فإنّ الجنود راحوا يعبرون الممر واحدا تلو الآخر.

على الرف الصخري الذي كان يرتفع مسافة مائة متر عن الأرض تحتهم وقف الأمير جابر يراقب النسر وقد كان يقترب من الجبل بسرعة عظيمة، لا تزيغ عيناه الثاقبتان عن موضعهم، لقد كان بمقدوره رؤيتهم من تلك المسافة، وأتى صوت ليث ليوقظه من شروده:

- "من هنا، هيا اتبعوني".

قال ذلك وراح نحو الحافة حيث كان قد ربط رؤوس ثلاثة حبال على صخور ناتئة وجعل يشد أوسطها كأنما ليتأكد من متانته، وقال بعد ذلك موجها حديثه إلى الصغيرة مايا:

- "تفضلي يا أيتها الأميرة".

وراحت مايا في خفة بالغة، مثل قرد صغير الحجم تنزل الحبل نحو الأسفل، وأتت رشا نحو حبل آخر، لكن ليث منعها من ذلك:

- "لا، تلك مجرد مكيدة، وضعتها في حالة تمت مطاردتنا، مثلما يحدث الآن تماما، جميعنا سوف نستخدم الحبل الأوسط، واحدا تلو الآخر، إنه دورك الآن يا آنسة".

فهم الجميع فكرة القائد ليث وأعجبوا بذكائه، رغم أن ذلك كان يعني إمكانية قتل أحد الجنود اللذين كانوا يتبعونهم.

****

فإذن تتابع الجميع ينزلون الحبل بحذر، واحدا تلو الآخر، آخرهم كان هو القائد ليث ثم يليه الأمير جابر، بعد قطعهم مسافة قصيرة، سمعوا أصوات تهديد ولغط تصدح من أعلى، ثم لم يلبثوا حتى رأوا جسدا صارخا يهوي أمامهم، فخلال المائة متر حتى سطح الأرض التي يقع عليها المعسكر، وخلال مستويات مختلفة، كان ليث قد ربط حبالا كثيرة لا يتعدى طول الواحد منها العشرين مترا، ولذلك كان جنود أرض الرياح يجدون ثلاثة حبال أخرى عند كل طابق، وكان عليهم استخدام واحد منها فقط، على أن مكانه لم يكن ثابتا في الوسط، وبذلك سوف يكون من الصعب جدا عليهم معرفة الحبل المتماسك من أول مرة، غير أنه لم يحدث وأن سقط شخص آخر بعدها، وذلك يعني أنهم إنما اكتشفوا الخدعة بطريقة ما أو أنهم تراجعوا تماما عن المخاطرة.

بعد انتهاء آخر مجموعة من الحبال المعلقة، ودون أن توصلهم إلى الأرض تماما، فإنّهم وجدوا أنفسهم يقفون على لسان صخري يبرز من جانب الجبل كان القائد ليث قد تعمد توجيه الحبال نحوه عندما نزل لربطها قبل ذلك، وكان قد ترك على حافة اللسان الصخري حبلا طويلا يتدلى من جانبين اثنين تحسبا لأمر كان قد رسمه في رأسه، ذهب القائد حينئذ إلى حافة اللسان الصخري ليلقى نظرة فرأى حشدا من العساكر قد اجتمع في الأسفل، فيما راح عدد قليل منهم يتسلقون جذوع النباتات الممتدة صاعدين نحوهم، لم يكن من السهل الوصول إلى تلك النقطة، لكنها كانت مسألة وقت فقط بالنسبة إلى جنود أشداء مدربين وخفيفي الحركة، قال القائد حينئذ بامتعاض بينا يرفع وجهه عن الحافة:

- "هذا آخر حبل بقي علينا استعماله، لقد ربطت عددا من الحبال مع بعضها حتى صارت حبلا واحدا طويلا ثم وضعت منتصفه على حافة هذه الصخرة وألقيت بطرفيه لأسفل، ينبغي أن يكون تقدري للمسافة صحيحا".

قال ذلك بشيء من الريبة، بينا عيناه تلمعان في بحر الضباب الذي كان يحوط الجبل من كل جانب، وتماما حيث كان طرفا الحبل يغرقان نزولا، وأتى صوت مُثاب محذرا بعدها:

- "إذا كنا سنفعل شيئا فعلينا أن نسرع".

وما إن أنهى كلامه حتى دوى صوت النسر محدثا جلبة عظيمة في أرجاء الجبل، وكان في ذلك الوقت يرفرف بجناحيه الواسعين على مسافة قريبة منهم، فيما تهتزّ عيناه في مواضع مختلفة باحثا عن فرائسه التي كان فقد أثرها منذ لحظة، لكن أتى صوت خولة معترضا بشكل مفاجئ:

- "إذا كنت قد فهمت الفكرة من هذا الحبل بشكل واضح فأعتقد أن بها عيبا صغيرا واحدا".

وقال ليث مستفسرا:

- "نعم يا آنسة".

فقالت خولة:

- "أتحدث عن الفتاة الصغيرة، غنّ جسمها لن يحدث توازنا مع أي واحد منا".

وما هي إلا ثانية واحدة، حتى تفطن القائد لبيث إلى العيب الصغير الذي احتوته خطته، ذلك أن الفكرة تضمنت أن يستعمل الحبل شخصان في وقت واحد، بحيث ينزل كل شخص على طرف، ثلاث مجموعات متتالية، حتى إذا نزلت آخر مجموعة، جُذب الحبل من أحد طرفيه فلا يبقى معلقا بعد ذلك،

ولا يتركون أثرا خلفهم ولا وسيلة لتتبعهم، غير أن هذه المشكلة البسيطة لم تكن لتقف عائقا أمامهم، إذ اقترح الأمير جابر حلا بسرعة، فطلب أن يحمل الأميرة الصغيرة على ظهره فيستعمل الأشجار في النزول بدل الحبل، وذلك سوف يسرِّع من هروبهم أيضا، لم يكن لأحد أن يعترض، فراحت خولة ورشا تنزلان الحبل توازيا، وتبعهما كل من ليث ومُثاب بعد ذلك، وأتى الأمير جابر بعدهم حاملا مايا مثل قربة ماء على ظهره.

ضباب

في الأسفل، تحت سجاد الضباب الذي بدأت ترشح منه خيوط ضوء الصباح الدافئ، وبين أوراق نبات السرخس، وقف الجميع في دائرة صغيرة، وراح مُثاب حينئذ يقول في تنهّد ويداه خلف ظهره:

- "الآن نحن وسط متاهة واسعة ومميتة، ويتحتم علينا أن نكتشف ممرا جديدا وآمنا لنعود من خلاله".

وقالت رشا:

- "لدي فكرة، ربما نتمكن من العودة إلى خط سيرنا السابق قبل أن نتوه تماما"وأنصت الجميع إليها فجأة، فأردفت قائلة :"لقد انطلقنا من نقطة معينة من الغابة الخارجية، وسرنا تحت مستوى الضباب إلى ذلك الجبل الأول، ثم عبرنا منه إلى هذا الجبل الذي خلفنا، أعتقد أنهما خطا سير يتعامدان تماما، إن فكري... فكرتي... حسنا، أعتقد أنني لا أعرف كيف أشرحها بشكل جيد".

ونطق ليث يقول في تلك اللحظة:

- "بلى، إنها فكرة جيدة، بل جيدة يا آنسة، أن نرسم مثلثا، تلك هي فكرتك، أليس كذلك؟ فقط لنحاول أن نجعله صغيرا قد ما أمكن، حتى لا نتوه بعيدا عن خط سيرنا الأول".

وقالت رشا وقد استغربت أنه لم يأخذ وقتا ليفهم الفكرة على غير عادته.

- "شكرا لك أيها القائد، أجل، تلك هي فكرتي، لنحاول تضيق الزاوية قدر ما أمكن".

قال مُثاب موكدا:

- "رائع، الآن لنمضي بحذر، بحذر شديد قدر ما أمكن، وكأننا نعبر حقل أفاعي نائمة ولا نرغب في أن ندهس ذيل واحد منها، إن الأفاعي مميتة، والحُفر أيضا، كما تعرفون جميعا".

وقالت مايا بصوتها الطفولي الخافت:

- "إذا كان هذا رأي المجموعة، فلننطلق إذن".

ولمّا لم يكن من سبب ليعترض أحد على الفكرة، فإنهم انطلقوا في تتابع يقودهم مُثاب في سير بطيء متأنٍ، فراحوا يبعدون أذرع السرخس بأيديهم ويضعون أقدامهم على الأرض بحذر، بعض الحفر كانت تظهر جلية أمامهم، وبعضها الآخر كان يكتشفها مُثاب وهو يبتلع ريقه، ليث وخولة

ورشا كانوا يسيرون معا في المؤخرة، وكانوا قد تراجعوا عن البقية بمسافة، وراح ليث يقول في صوت خفيض يكاد يكون همسا للفتاتان أمامه:

- "ثمة خطب في كل هذا، ثمة خطب ولا ريب، إنني أجزم... يبدو أن الفتاة الصغيرة قد قد تعلمت درسها، ولم تعد تخطئ في كلامها، لكن مُثاب فعل أمرا غير مقبول وقال آخر، لقد قتل واحدا من رفاقه، هناك في الأعلى، حينما ذهبت لمساعدته في جر جسدي الحارسان نحو الشجر، ألم يكن هنالك جسد ثالث؟ ذلك كان ميتا، لأنه لم يكن من طريقة أخرى لإسكاته، لقد أتى يحمل حربة في يديه نحونا، لكن مُثاب قتله بنصل حاد ألقاه عليه فأصابه في مقتل، وخرّ الرجل صريعا مثل عود خشب، قتله بدم بارد، وكأنه متسلل إلى هذه الأرض مثلنا، كما أنه ذكر اسم الأمير شهاب مجردا، وأمام الأميرة ابنته، دون أن تبدي رد فعل ولو بنظرة استغراب واحدة".

قالت رشا وقد أدهشها ما يقوله:

- "غريب فعلا، وأنا بدأت أشك في تصرفاتهما أيضا أكثر من السابق، فرغم ثقتي بالأمير جابر وقراراته، لكن ما يفعلانه بات أكثر من أن يكون مجرد مساعدة لإنقاذ عجوز بريء من سجنه...".

وهنا تذكر الاثنان خولة التي كانت تسير بشرود أمامهما:

- "خولة!".

- "آسفة، لقد شردت قليلا يا رشا، فعلا، وأنا لاحظت ذلك أيضا".

- "تبدين شاردة".

- "إنني بخير ".

عادت شا تقول حينئذ:

- "أعتقد أنها تخطط للإطاحة بوالدها...".

قال ليث :

- "كيف ذلك؟".

- "من خلال إحداث مشاكل مثل هذه، إنّ تهريب سجين مهم مثل الأمير جابر، هو أمر سيضعف صورته أمام شعبه... وقد تقل شعبيته".

بعد بضع خطوات أخرى، أتى صوت مُثاب ليبهجهم فجأة بقوله:

- "من هنا، إنني أسمع أصوات قردة، لابد وأن هذا هو وقت عبورها...".

قال ذلك وراح يتبع الأصوات بهدوء شديد وحذر، حيث قادته إلى مكان تحفه شجيرات متشابكة، وجعل يختبئ خلف الأوراق لوقت قليل حتى يمر القطيع دون إزعاجه، كانوا حوالي خمسة عشرا قردا يتتابعون بهدوء على أطرافهم الأربعة تتقدمهم أنثى كبيرة الحجم تحمل صغيرا على ظهرها، ذلك

حتى إذا اختفى آخرهم، وخرج المختبئون إلى الممر الذي بدا مألوفا لهم، أتى صوت يقول في تنهد:

- "هذه آخر عقبة نتجاوزها، أليس كذلك، إنني لم أعد أقدر على الفرار أبعد من هذا، ولسوف أستل سيفي للقتال إذا ما ظهر أحدهم أمامي مرة أخرى...".

وقال الأمير جابر يرد على الكلام المبهم الذي كان حتى هذه اللحظة قد بقي عائما في الضباب أمام وجه صاحبه:

- "أراك متحمسا للقتال يا ليث...".

- "ليس كثيرا يا سيدي، لا... على الأقل ليس في حضرة من قاما باستضافتنا".

ونظر إليه المعنيان نظرات فاحصة، وقال الأمير جابر:

- "ما الذي تعنيه بقولك هذا؟".

- "ما قلته، إنني لم أعني أكثر مما قلته يا سيدي...".

- "لنمضي إذن، إذا لم يكن لدى أحدكم شيئا ليقوله...".

هنا همت خولة بأن تتحدث، لكن ورغم أن الكلمات قد تدافعت إلى حلقها مسرعة، إلا أنها علقت هناك خلف بعضها، مثل طابور تم دفعه بقوة

حتى ضرب آخره أوله، وبقيت صامتة، يخنقها حزن مرير فأنزلت يدها بهدوء وأرخت سمعها إلى من قاطعها:

- "سيدي، لقد جئنا لأمرين كما أذكر، و إننا لم نحقق واحدا منهما بعد، فهل سنغادر الآن دون ذلك؟".

- "إنني بالفعل قد حصلت على ما يكفي من المعلومات يا ليث".

- "معلومات بشأن ماذا يا سيدي؟".

- "بشأن ما يحدث من حولنا، ثمة أمر هو أهم مما جئنا لأجله... وعلينا أن نسرع بمغادرة هذا المكان حالا، وسوف نتحدث عن الأمر أكثر في ذلك الكوخ حيث لن تصلنا الآذان أبدا...".

- "وهل هو أمر أهم من إنقاذ والد خولة يا سيدي؟ أرجوك اعذرني يا سيدي لكن...".

الآن وفي هذه اللحظات الغريبة، وفي سابقة لم تحدث، وجد ليث نفسه وقد تملكه برود قوي ليرد بشجاعة على الأمير جابر وبلهجة بدت أكثر قسوة مما يجوز لقائد أن يخاطب بها سيده الذي هو أعلى منه رتبة، فإذن تنقلت عينا الأمير من القائد إلى خولة ببطء وراحتا تطالعانها لثوان معدودة، وكانت خولة حينما تلقفت أذناها حديث القائد قد سرت في جسدها

رعشة باردة سرعان ما تكسرت في قلبها، ربما كان ذلك بسبب صخرة الغضب التي كانت تخنق حلقها والتي سقطت لأسفل في تلك اللحظة، أو ربما خوفا من رد الأمير الذي لم يكن بمقدور أي شخص توقعه، كانت عيناها (و إن كانتا في الواقع تخفيان دمعا حارقا خلفهما) قد تحجرتا ظاهريا وهما تطالعان الوجه الخشبي بذعر خفي صامت، وبينا راحت نبضات قلبها تضطرب، قال الأمير جابر وليس ثمة في صوته شيء لم تخشى سماعه، لقد قال وعيناه لا ترمشان لحظة:

- "ليس الآن يا ليث إننا سوف نؤجل هذا أيضا".

على هذا الرأي انطلقوا يعودون أدراجهم عبر الممر المنزوي بين الأعشاب المتشابكة، قاد ليث المسير حتى الحافة التي نزلوا منها أول الأمر، ثم صعدوا المنحدر الواحد تلوى الآخر وغابوا في الغابة الخارجية، كانت الشمس قد طلعت وانبلج الصبح وأشرق، وساروا بداخل الغابة في صمت وحذر، مشت خولة مطأطئة الرأس في وسط المجموعة، وطوال سيرهم، لم تكن قد نظرت نحو الأمير جابر ولو لمرة واحدة، إنّ قلبها ظل يتفطر بالحزن والغضب، لم تعد تفهم ما يحدث، وغاب فكرها وغاصت

بمخيلتها في دوامة سوداء لا قعر لها، فلقد صدقت فعلا أنّ الأمير جابر قد تخلى عن فكرة إنقاذ والدها.

لحظة وصولهم إلى الكوخ استأذنهم مُثاب وانطلق عائدا نحو الأرض الثانية ليأتيهم بطعام يقويهم فلم يكن أحد منهم قد تناول شيئا منذ ساعات طويلة، وجلس ليث والأمير جابر على لوح خشبي مجهز كمقعد للجلوس أمام الكوخ وراحا في حديث بينهما، فيما دلفت الفتيات إلى الداخل، لكن لم يمضي وقت حتى خرجت الأميرة مايا مرة أخرى وراحت نحو نحوهما وكان حديثهما يدور حول ما وقع لهم مؤخرا، واستطرد ليث في حديثه المنفعل يقول وقد احمرت وجنتاه قليلا من الغضب:

- "لكن يا سيدي، إنها أوقعت بك في أيديهم...".

- "أخبرتك أنها ليست كما تظن يا ليث، نيفين لم تقم بخيانتي، فاهدأ قليلا... ثمة شيء لم أتمكن من فهمه، و إلا كنت شرحت لكم ما وقع فعلا، في الأصل يوجد أمر عظيم بالغ الأهمية عرفته منها، أمر عظيم بحيث لم يذهب عقل أحد إليه أبدا، فكري مشوش كثيرا في هذه اللحظة، فانتظر يا ليث وسوف أطلعكم على الأمر بعد لحظة...".

وأتت مايا تقول من خلفهما في صوت تعلوه دهشة طفيفة:

- "هل كان اسمها نيفين إذن؟ اسم جميلا حقا...".

والتفت ليث ينظر إليها، لكنها ما إن وقفت أمامهما حتى خاطبها الأمير جابر بنبرة جادة تنم عن صرامة وحذر:

- "فمتى كنت تنوين إطلاعنا على الأمر إذن؟".

وضمت مايا دميتها إلى صدرها لمّا أدركت مباشرة ما عناه الأمير بقوله، لكنها لم تجبه رغم ذلك، حتى إذا رفع بصره نحوها وكانت تتحاشى النظر في عينيه مباشرة، حينها تبدل وجهها وهي تنظر في الأرض وصارت كطفلة تُعاتَب لذنب قامت باقترافه، ونطقت تقول في أحرف ثقيلة كادت أن تكون متقطعة:

- "اوار... ذلك هو اسمه".

- "اوار! أليس هذا هو اسم دميتك؟".

- "بلى".

كانت مايا تقف قريبا من الأمير جابر فمد يده إلى الدمية على صدرها:

- "هل لي أن أراها؟".

وتلقّف الدمية بين يديه وراح يتأمل منظرها الشنيع بغرابة، إنه لم يبدي بها اهتماما قبل ذلك، ولا أحد غيره قد فعل، لكن الآن وهو يقلبها في يده

ويطالعها على مقربة، هاجمه شعور غريب فجأة، لقد سرت قشعريرة في يده، وأحس لوهلة بأن ثمة علاقة تربطه بالدمية، لقد كان لها وجه محترق، لرجل قميء المنظر، له عينان شيطانيتان وذقن حاد ينذر بمكر وخبث حارق، بدا أن الزمن يتباطأ من تحت قدميه ويغرق، وأيقظه صوت القائد ليث حينما أرسل يده ذات الأصابع الأربعة ليتفقد الدمية بدوره، وحينئذ صاحت فيه مايا بصوت مرتفع:

- "إياك... لا تقم بلمسها".

وسقطت الدمية من يد ليث على الأرض أمام قدميه بينا سارعت مايا لالتقاطها، والتفت الأمير جابر إلى ليث يخاطبه بصوت فزع:

- "ما بك يا ليث؟".

- "يدي... يدي تحترق!!".

كتم ليث أنفاسه، لكنّ ملامح وجهه ظلت تنقبض وتعتصر، كان يمسك يده الناقصة بالأخرى ويوشك أن ينفلت صوته الصارخ، وقالت مايا حينئذ بتوجس بينا تبتعد بدميتها إلى الخلف قليلا:

- "سوف يختفي ألمك بعد قليل أيها القائد...".

ونظر إليها الأمير جابر بعين لاذعة:

- "ما كان هذا؟".

وأخذت مايا نفسا وفتحت عينيها بعد برهة قائلة:

- "كانت هدية من أمي..."ثم بدا وكأنها غرقت في ذاكرتها البعيدة وانطلقت تسرد عليهما القصة:"كنتُ لا أزال صغيرة جدا، حين جاء ذلك الرجل الغريب إلى قصر والدي في تلك الليلة، لم أستطع رؤية ملامحه، لكن خياله بدا ضخما ومخيفا من خلف السور الورقي الذي يفصل بين الغرف، كان شخصا مهما، ولم ويسمح والدي لأحد برؤيته، حتى... حتى أنه كان ينحني عند قدميه مثل عبد خاضع، لم أشعر إلا ويد أمي تطبق فمي، أخذتني بعيدا واحتضنتني باكية، لم أفهم ما الذي كان يحدث، لقد جعلتني أعدها بأنني لن أخبر أحدا بما رأيته، أمير أرض الرياح بعظمته يخضع لغريب أتى إلى قصره!! خلال الأيام القليلة التالية رأيت أمي تبكي مرات كثيرة، لم تخبرني أبدا عن سبب بكائها، كانت فقط تضمني وتحبس دموعها بصعوبة ثم تجعلني أعدها بأن أكون فتاة قوية...".

الآن أطلت راشا من الكوخ وأسندت كتفها إلى الباب وراحت تصغي سمعها أكثر، والتفت إليها الأمير جابر :

- "هل هي بخير؟".

- "إنها نائمة...".

وعاد نحو الفتاة الصغيرة.

- "أرجوك أكملي...".

واستتلت مايا تقول بحزن خانق:

- "اختفت أمي فجأة... ولم أعرف حينئذ ماذا أفعل، فوالدي انقلب علي بعدها، ولم يعد يعرفني، لم تتح لي الفرصة حتى لسؤاله عن أمي، بعد أيام قليلة جاء عمي وأخبرني بأنه سيبحث في الأمر، ثم عهدني إلى مُثاب وزوجته، لكنني لم أره بعد ذلك أبدا...".

- "حسنا، إنك لم تخبرينا عن سر الدمية".

- "أجل... بعد مضي شهر واحد على اختفاء عمي أركان جاء رجل إلى مُثاب وسلمه علبة غريبة الشكل ورحل دون أن يقول شيئا، عندما فتح مُثاب العلبة وجد الدمية بداخلها، وحينما أراد حملها فقد حصل معه نفس الشيء الذي حصل مع القائد قبل لحظة... وما تلك الندبة على يده إلا بسبب ذلك، لكن كان في الصندوق شيء آخر، رسالة من والدتي..."سكتت مايا لبعض الوقت ريثما تمسك نفسها عن البكاء وريثما يهضم المستمعون كلامها، ثم عادت تقول بعد برهة :"مرة أخرى

جعلتني أعدها بأن أبقي الدمية بحوزتي، وألا أجعلها تقع في يد والدي مهما كلفني ذلك، وألا أخبر أحدا عن أمرها، قالت أنها شيء ثمين سيحتاجه هذا العالم في وقت ما، هي أثمن من أن تباع بذهب الأرض كله، لكنني حتى الآن لا أعرف ما الغاية منها... إنني فقط أستمر بإبقائها معي و إخفائها عن الأعين، و إلا فلست بحاجة إلى الدمى...".

أنهت مايا حديثها فسقطت من عينها دمعة دافئة كأنما لتضع نقطة في نهاية حديثها، نقطة وعلامة استفهام ضخمة ترسمت أمام عيون المستمعين فأردتهم حيارى من حديثها، وقال الأمير جابر بعدها:

- "أهي محظورة عمن هم دون الأمراء أو سلالتهم؟".

وهزت نعم رأسها أن نعم.

- "ما الذي تعرفينه بشأن الإمارة السادسة؟".

وتفتحت أعين كل من القائد ليث ورشا بذهول شديد لوقع ما قاله الأمير جابر، حتى لقد تشنج فكر القائد ليث فلم يعد يشعر بالوجع الذي كان في يده، في حين طأطأت مايا رأسها دون أن تقول شيئا.

- "أسألك أيتها الأميرة، هل تعرفين شيئا بخصوص هذا الأمر؟".

- "ليس كثيرا، أعلم فقط أنها تقع في باطن الأرض، وأعتقد أن ذلك الرجل الذي رأيت والدي ينحني له هو أميرها...".

- "وكيف عرفت ذلك؟".

- "كان في الرسالة التي أرسلتها والدتي...".

- "لم تذكري هذا قبل قليل!!".

- "إنكما الآن لا تعرفان أقل مما أعرف...".

- "لهذا إذن تعارضين والدك!!".

ورفعت مايا عينيها الحزينتان نحو الأمير جابر:

- "أعتقد أن المشكلة لا تقتصر على إهدائه والدتي لذلك الرجل، أنا متأكدة من أن ثمة أمر أكبر من ذلك...".

ونطق القائد ليث قائلا وقد اختنق حلقه بالدهشة:

- "أليس فيكما من يرأف بنا فيخبرنا يما يجري؟".

في هذه اللحظة راحت أصوات خطو تقترب، نظروا وإذ به مُثاب يأتي حاملا سلتين من الطعام قادما نحوهم، وحينئذ قام الأمير جابر واقفا:

- "على أي حال، سوف نكمل حديثنا لاحقا...".

قال ذلك وتوارى في ظلال الغابة، ونظر القائد ليث إلى الأميرة مايا وكانت تلاحق خيال الأمير جبار بعينين تنسحقان ذعرا، وتقدمت رشا تستلم سلة من يد مُثاب قائلة:

- "أرجوكم، لتناول الآن شيئا من الطعام وسوف يكون لكل حادث حديث بعد ذلك...".

وأفرج مُثاب عن دهشته قائلا:

- "هل حدث شيء ما أثناء غيابي؟".

نيفين

والشمس تذبل مائلة في عنان الجبال الغربية فإنها أخذت تسحب دفئ النهار خلفها وتأخذ به بعيدا، مخلفة أطيافا باردة تحوم فوق الغابة، في ناحية شرقية بجانب الكوخ جلست خولة بفكر شارد، كانت عيناها تطالعان السماء الزجاجية شاردة، بينا تفكر بعمق، وأتت رشا فجلست بجانبها، ومرت لحظات طويلة حتى تحدثت إليها :

- "لماذا تجلسين وحدك؟".

- ...

- "حسنا، لقد وقع عليّ أن أخبرك بهذا... والدك مفقود يا خولة، لا أحد يعلم أين تم اقتياده...".

- ...

- "لهذا إذن طلب منا العودة؟".

- "لم يكن ثمة من داعٍ للبقاء هناك لوقت أطول...".

- "لماذا لا يأتي ويخبرني بنفسه؟".

- "أظنه لم يقدر على فعل هذا..."وسكتت رشا لبرهة واستتلت بينا تراقب السماء بفم باسم :"أتعلمين، رغم قوته... إلا أنّ في قلبه لينا يصعب رؤيته، لينا يؤلمه، لم يقدر على الاعتذار منك رغم أنه بذل جهده وقادنا إلى هنا، فأشخاص مثله ليس أصعب عليهم من أن يخذلوا أناسا قد اعتمدوا عليهم، أما في حالتك أنت يا خولة فالأمر مضاعف، فكري في أنك يوما ما قد تخذلين شخصا تحبينه؟".

- "هو لا يحبني...".

- "بلى... الجميع يرى هذا، نظراته تلك تفضحه، حتى لو خبأها خلف الخشب، عليك الآن أن تفهمي شعوره، إنه في وضع صعب جدا، فلديه غروره، غرور من النوع الذي لا يتقبل الخسارة، ربما حزنه الآن وغضبه من نفسه يماثلان خيبتك... ثقي بما أقوله، إنه لم يفاتحك في الأمر إلا لأنه قد أزعجه بشدة، و إلا...".

- "ماذا؟".

- "هنالك أحد قادم...".

ورفعت خولة بصرها عن الأرض نحو عمق الممر الغارق في الغابة، وكان ثمة خيال أسود يتقدم في بطئ وصمت.

في الركن المقابل كان الأربعة الآخرون يجتمعون معا حين صاح مُثاب بصوت مرتفع لما انتبه لذلك الظل القادم:

- "سيدي، إنها!!...".

ونظر الجميع بذهول إلى ذات الموضع.

وقفت بينهم امرأة بديعة الجمال في الثلاثين من عمرها، بثياب من الحرير بيضاء ناصعة كأنها السحب الصافية، وكانت تحمل في يدها رداءً أسود نزعته لتوها، كانت قد استعملته للتخفي والوصول إلى هنا، والآن وهي تقف بينهم فإنها أبعدت عيناها الصافيتان عن الأميرة مايا وراحت تغمس بصرها في التراب بينا تخاطب الأمير جابر في تضرع:

- "لا أدري كيف أستطيع الاعتذار منك يا سيدي، لقد كنت مضطرة إلى فعلها، لأنني شعرت أننا كنا تحت للمراقبة في تلك اللحظة، إن الحراسة باتت مشددة، وقد بث الأمير شهاب العسس والجواسيس في كل موضع، إنه يخطط لخروجه".

- "هل ثمة موعد محدد؟".

- "قريبا، قريبا يا سيدي...".

ونظر الأمير جابر خلف المرأة حيث تختنق ظلال الغابة:

- "هل هما معك؟".

- "أجل، إنهما برفقتي، يمكنك الاعتماد عليهما، هما مثل سيدتي الأميرة مايا، فبعد علمهما بما يحدث، قررا أن يقفا ضد الأمير شهاب ويحاولا منعه من تنفيذ مخططه...".

ونظرت بعدها إلى الفتاة الصغيرة، فابتدرتها الأخيرة بقولها:

- "لقد أحسنت صنعا بتجنيد اثنين من رجال والدي، أظن أن بإمكانهما تقديم المساعدة...".

وانحنت نيفين إجلالا للأميرة.

- "سيدتي...".

في الخلف قليلا قالت خولة تسأل رشا بصوت خافت:

- "من هذه؟".

- "نيفين، الجاسوسة التي لطالما سمعتِ عنها، إنها جميلة أليس كذلك؟".

وأتى صوت ليث بعد ذلك حادا كعادته:

- "لماذا وافقت على مقابلته إذن، إذا كنت ترين كل تلك المخاطرة؟".

وقالت نيفين تجيبه :

- "حتى أطلعه على ما يحدث، لم أقدر على إخراج المعلومات بأي طريقة، وحينما أخبرتني سيدتي مايا أنه قد جاء إلى هنا بنفسه وأنه يود مقابلتي وافقت بسرعة، لم أفكر كثيرا لأن الأمر حدث بسرعة، والمعلومات التي كنت أحملها يعرف الأمير أنها تستحق تلك المخاطرة...".

ونطق مُثاب يقول فجأة:

- "في الواقع إننا مدينون لك بشكر يا آنسة، فقد كنت أنت من أنقذ الموقف هنالك أليس كذلك؟".

ونظر ليث إليه في عجب سريع ثم عاد نحو نيفين بعينين مفتحتين بالكامل:

- "أكان أنت من أصاب ذلك الرجل؟".

- "أجل يا سيدي، ففي النهاية كان عليّ تصحيح الوضع و إخراج سيدي من سجنه، وصادف أنكم سبقتموني إلى ذلك...".

- "لم أعهدك بتلك البراعة في استعمال القوس كما أذكر".

- "ليس قوسا يا سيدي، بل نشاب صنع بحرفية عالية، إنه أكثر دقة ومرونة، ويمكن إتقانه بسرعة...".

- "على كلٍ، كان يمكن أن يصاب الأمير جابر بمكروه بسبب فعلتك!!".

- "أبدا،ف ما كنت لأخاطر بذلك، بالأمس كان الأمير شهاب منشغلا بأمر آخر، لأنّ ذلك المدعو اوار كان هنا في قصره... إنها المرة الثانية التي يأتي فيها إلى هنا".

هنا الأمير جابر إلى الدمية في يد مايا للحظة وعاد يقول بصوت هادئ:

- "هل رأيته؟".

- "لا، لم أره".

ونطقت مايا تخاطبها مندهشة:

- "فكيف عرفت باسمه إذن؟".

وأجابت نيفين بصوت مرتبك:

- "علمت هذا من والدك".

- "أحدثك بأمره؟".

- "والدك سيذهب لزيارته في وقت قريب جدا، وقد حدثني بشأنه، فكما تعلمين، أنا".

وحال خجلها العظيم دون أن تتم كلامها، ولذلك أرادت مايا مساعدتها للبوح بأمرها فعادت تسألها بينا تصطنع الدهشة:

- "فأذن لم تخبري الأمير جابر حتى اللحظة، أليس كذلك؟".

- "لم يكن الوقت مناسبا عند لقائنا".

ووضع الأمير جابر عينيه في عيني نيفين بنظرة ضيقة مبديا تساؤله، وراحت الفتاة الصغيرة حينئذ تكمل ما بدأته بنفسها:

- "إن المرأة التي أرسلتها للتجسس على والدي قد نجحت في مهمتها كما ترى أيها الأمير، فلقد كسبت ثقته بشكل بالغ حتى قربها إليه دون الأخريات جميعا وتزوجها".

وسط الهدوء المرير الذي عم المكان من حول نيفين وبين الخوف والخجل والشعور بالمرارة الذي تملكها من تلك الفعلة، وبينا تنتظر أن يقذفها الأمير جابر بكلمة واحد تكون كصعقة تُرجف أوصالها، فأنّه قد اكتفى بقوله:

- "أظن أن لديك مزيدا لتقوليه يا نيفين، ثم إنّ البعض ممن يقفون هنا بيننا لا يعرفون بما يحصل، فتحدثي بما يشفي صدور الجميع ولا تقصري في ذلك".

تنفس قلب نيفين في هذه اللحظة وانفرجت أساريرها حتى بدت أجمل عما كانت عليه قبل لحظة، ثم تنهدت وراحت تتحدث إليهم بأريحية:

- "جميعكم بتم تعرفون أن عالمنا هذا ما هو إلا عالم صغير بداخل عالم أكبر، لكن ما لا يعرفه البعض هو أن ثمة في عالمنا إمارة أخرى غير الإمارات الخمسة المعروفة، إنها أمارة سادسة تقع في باطن الأرض، تدعى بإمارة النار... ورغم أنها كانت موجودة منذ وجد هذا العالم إلا أننا علمنا بأمرها فقط مؤخرا، الأميران اللذان عرفا بأمرها أولا أبقيا ذلك سرا، أعني أميرا أرض الرياح وأمير أرض الرماد في ذلك الزمن، كان ذلك بعد موت الساحر الأكبر مباشرة، حينها حدث أمر ما أدى لاكتشافها تلك الإمارة"الآن وبينا نيفين ماضية في حديثها كان كل من خولة وليث ورشا يتلقفون ذلك بدهشة بادية، الأمير جابر كان قد علم بذلك مسبقا لحظة لقائه معها، أما الأميرة مايا ومُثاب فكلاهما كان بالفعل قد اطلع على نصف الحقيقة :"حتى هذه اللحظة لا نعرف الكثير عن هذه الأمارة، ما نعرفه أنها تسعى لترك باطن الأرض والخروج إلى السطح... وما قدوم أميرها إلى هنا إلا استعدادا لذلك، إن الأمير شهاب بالإضافة إلى الأمير اَرون أمير أرض الرماد يسعيان جاهدين لمساعدة اوار على إخراج جيشه من باطن الأرض

بسرعة لغزو هذا العالم... ليس ذلك فقط، بل غزو العالم الخارجي بالكامل...".

قالت نيفين ذلك ونظرت شزرا إلى خولة لترى ردة فعلها، غير أنها وجدتها تقف جامدة لم تحرك فيها تلك الكلمات شيئا على ما يبدو، ومضت لحظات سريعة ثم نطقت خولة:

- "أعتقد أظن أن تلك فكرة سيئة"ونظر إليها الجميع مندهشين من قولها فأردفت تقول وهي ترفع بصرها عن الأرض "إنّ ذلك سيتسبب في دمارهم فقط، لن يقدروا على إحداث أي شيء في عالمي".

ونطق ليث:

- "هل عالمك بتلك القوة؟".

- "يمكنك أن تسأل الأمير إن إردت ذلك".

وتنقلت العيون كلها نحو الأمير جابر، لكنّه يرد للسؤال جوابا، بل بدا أن فكره هام في شيء آخر، ونطق يسأل نيفين حينئذ:

- "كيف يمكننا تحديد موعد خروجهم، أو ما هي الطريقة التي سيستخدمونها أو من أي موضع سيكون خروجهم، هل بإمكانك الإجابة عن هذا؟".

وأخذت نيفين تفكر:

- "قبل أيام فقط بدأ الأمير شهاب بتأدية صلاة غريبة، كان يبقى لوحده في الظلمة ويتحدث بشأن أمر ما صنع قبل زمن بعيد جدا، كان يذكر أيضا أن هبة الألف سنة لم تكن كافية، لا أعرف ما الذي ينبغي أن يعنيه هذا، لكنه أمر مهم يصيب هذا العالم كل ألف سنة، وأظنه سيقع قريبا أيضا".

وتدخلت خولة تقول فجأة:

- "قلت أنهم يخططون لغزو العالم الآخر، إذن هم بحاجة لبوابة تسع جيشا بكامله، وكلى الأمرين يفترض أن وقوعهما بات قريبا؟ ربما يكون ذلك ما عناه بقوله".

- "لكن... لكن"كذلك تلكأت نيفين في طرح كلامها حينما برقت فكرة ما في مخيلتها، إن حديث خولة الذي بدا عشوائيا كان بالفعل قد أنزل واحدة من القطع المهمة في الصورة التي كانت نيفين تسعى لتركيبها في رأسها، ومضت تقول وقد اتسعت عيناها ببريق لامع:"ذلك هو، ذلك صحيح تماما... إن ذلك ما يريدونه"والتفتت بعدها إلى الأمير جابر ": الآن يمكننا فهم سبب ارتكاب كل تلك المجازر، موت القرى... كل ذلك القتل الذي

ارتكبه رجال الأمير اَرون كان له غاية واحدة، وهو التسريع من فتح البوابة الكبيرة ".

وقاطعها القائد ليث بقوله:

- "أما أنا فسوف أتجنب طرح أسئلة كثيرة كانت لتساعدني على فهم وتصديق ما أسمعه منكم، وسط دهشتي هذه... لكن إذا كنت قد فهمت شيئا مما قالته السيدة نيفين قبل لحظة، فهو أن قتل القرى كان لهدف توسيع البوابة التي يفترض أنها ستفتح بعد أيام قليلة فيما أحسب".

- "لا أظن أن ثمة تفسيرا آخر لما يحدث".

نطق الأمير جابر قائلا:

- "ألف سنة... شيء ما صنع منذ زمن بعيد جدا... ربما ذلك تاريخ صنع هذا العالم"كان يطالع الفراغ وهو يقول ذلك، ونظر إليه الجميع بدشهة في انتظار ما قد يضيفه:"هبة الألف سنة... هم يعلمون تاريخ بداية عالمنا،و لذلك هم ربما يعرفون وقت فتح البوابة".

وقال مُثاب حينئذ:

- "إذا كانت هذه البوابة تفتح كل ألف سنة، فكيف لم تصل أخبارها إلينا من قبل أبدا".

- "ذلك لأنه لا أحد يعرف موقع ظهورها".

كذلك أجابته نيفين بقولها، والتفتت نحو الأمير جابر مرة أخرى وجعلت تقول في صوت يعلوه قلق:

- "سيدي، هنالك أمر آخر علي إخباركم به... ثمة شيء ما يحدث في الأرض الوسطى، بالأمس أتى رسل من أرض الرماد يحملون رسالة إلى الأمير شهاب، ولقد توصل مرافقاي إلى فحوى تلك الرسالة، وقد نُقل فيها أن الأمير اَرون سوف يشرع في تأدية مهمته، وأنه سوف يرسل رجاله إلى الأرض الوسطى في أسرع وقت بغية تحقيق إرادة الزعيم الأعظم، وهذا يثبت أيضا أنهما يعملان معا لصالح الرجل المدعو اوار و إنه لأمر يدعو للقلق حقا".

وقال ليث:

- "ألم يكون على خلاف في آخر مرة؟".

وأجابته رشا:

- "يفترق الأشرار بمثل سرعة اجتماعهم، ذلك أن الروابط التي تكون بينهم لا تتعدى كونها أطماعا شخصية".

وقال الأمير جابر بنبرة تتدافع فيها الحيرة:

- "لم يبقى شيء في الأرض الوسطى غير الوسطاء الأربعة، ما الذي قد يسعى ل..."

قال ذلك وصمت بعدها، وراحت تعلو وجهه نظرات مقلقلة، ذلك أنه فهم من الأمر شيئا وخاف أن يصدقه، وراح بنظره نحو الأفق بعد ذلك وصار يطالعه بعينين يكسوهما القلق.

- "سيدي".

قال ليث بصوت مندفع.

- ...

- "إنني أخشى أن يستهدفوا الوسطاء هذه المرة، فقوة السحر التي كانت تحميهم قد انكسرت بعد موت الساحر ساري، أظن أنه ينبغي... لكن الوقت".

لم يسمع الأمي جابر كلمات ليث الأخيرة، فلقد ساوره شك مرعب سيطر عليه وشوش فكره، ولم يكن في وسعه سوى تمنى المزيد من الوقت للحاق بما يحدث، مر من الوقت ساعة، وبينا تفرق الجمع كل في شأنه، اجتمعت خولة مع الأمير جابر في طرف قصي أمام الغابة، وراحت تسأله عن سبب صمته، وحيث لم يجد لسؤالها جوابا، عادت تطالعه بنظرة ترجي:

- "أرجوك لا تصمت هكذا، إن سكوتك أصعب من أي حديث مؤلم قد تقوله... كان عليك فقط أن تخبرني، ليس عليك أن تهرب من مواجهتي في كل مرة، إنني أقدر ما تبذله، بل إنه... إنه ليس عليك أن تبذل شيئا، لست مضطرا لبذل أي مجهود من أجلي، إن إنقاذ رجل عجوز يأتي من عالم آخر ليقع في أسر أعدائك لم يكن يوما من شأنك، سأكون سعيدة إن حدث وأنقذته، لكنني لن ألومك إذا لم تفعل، ذلك ليس من حقي، ولو قليلا... عليك أن تفهم هذا أيضا".

استمرت حدقتا عيني خولة بالاهتزاز في محجريهما، وترقرق الدمع فيهما حتى كاد يقطر، وراحت شفتاها ترتعشان حزنا :"إني ليس لي أحد في ذلك العالم، إذا عدت الآن إلى هنالك فلن أجد أحدا في انتظاري... لا أحد إطلاقا، كان لدي فقط والدي، والآن... لن ألومك على شيء أبدا... ".

مثل انقلاب الليل والنهار كان وقع ذلك الأمر عليها، إن ريحا بيضاء هبت في صدرها وأحالت نارا كانت تشتعل بداخلها إلى زهور بيضاء راقصة، طارت أوراقها مع النسيم وعبر خيوط الغناء في مسار بعيد لا ينتهي، لقد اتسع صدرها واحتل كل هذا العالم، لم تجرأ أن تفتح عينيها الدامعتين ولو للحظة، كان قناع الأمير في يده، ووجدت نفسها تضع يديها على يده التي

تحمل القناع دون أن تشعر، في تلك اللحظة الخارقة، أتى صوت ليكسر الزمن ويعيد للوقت طبيعته، وافترقت شفتاهما برفق وأعاد الأمير القناع إلى مكانه، وفتحت خولة عينيها فيما يكاد قلبها ينخلع، تقدمت نيفين تقول بأسف:

- "المعذرة، ظننت أنك هنا لوحدك، لم أقصد أن...".

- "ما الذي تريدينه؟".

- "سيدي... إذا كان لديك دقيقة واحد".

- "تحدثي يا نيفين ليس هنالك شيء أخفيه عن خولة".

وزاد شعور الخجل الذي تملك خولة أضعافا مضاعفة، إنها باتت تدرك الآن مقدار حبه لها، يقينا لا يمكن التشكيك فيه لأكثر من ذلك لحظة واحدة.

فإذن نيفين اقتربت منهما وقالت خافضة رأسها فيما يشبه أنها لا تصدق ما تقوله:

- "سيدي، تلك الورقة التي أرسلتني للبحث عنها، لقد استغرق مني مفاتحة الأمير شهاب بشأنها وقتا طويلا، لأنني علمت في البداية أنه يوليها اهتماما بالغا... ولقد قام باستخدامها في غرض مفزع".

- "وما هو ذلك".

- "إنها يا سيدي".

- ...

- "إنها ورقة تساعد على إعادة الحركة إلى أجساد الموتى".

تيبست أطراف خولة والأمير جابر مباشرة بعد هذا، وضاقت نظرة الأمير في نيفين للحظة:

- "ما الذي قلته؟".

- "سيدي".

- "لقد أهداها إلى ذلك المدعو اوار منذ فترة، إنها الآن بحوزته".

- "وهل تعلمين إن كان أي منهما قد استعملها؟".

وهزت نيفين رأسها نافية، وساد الصمت بينهم لدقيقة كاملة، ثم نطق الأمير جابر بعد ذلك قائلا:

- "حسنا، أظن أنه لم يعد من داعٍ لبقائك هنا، يمكنك العودة معنا".

وقالت نيفين في تردد:

- "إذا كنت ستدع لي فرصة الاختيار فأنا أرغب في المكوث هنا لفترة أطول، قد يمكنني جلب بعض الأخبار المهمة في قادم الأيام يا سيدي".

- "ما الذي تفكرين بفعله؟".

- "من المرجح أن يقوم الأمير هاب بزيارة إلى أرض النار قريبا، وأعتقد أنه بمقدوري أقناعه للسماح لي بمرافقته، حينها سأتمكن من جمع معلومات جيدة عن المدعو اوار وأرضه".

مرت فترة صمت.

- "ذلك القاتل المتجول، هل لديك معلومة بشأنه؟".

- - ""لا أحد يتحدث عنه في القصر أبدا، لكن مرافقاي عرفا من أحد القادة بأنه تابع للعدو، ليس ظاهرا من يكون في الحقيقة، غير أنه لا يبدو كشيء طبيعي حسبا ما ذُكر... حتى أنه خرج عن طاعتهم، لم يعد يأتمر بأمر أحد".

- "فلذلك إذن أرسلوا أولئك...".

- "ما الذي أرسلوه يا سيدي؟".

- "لحظة... لقد كان رجال الأمير اَرون يلاحقونه قبل فترة، وهذا يعني أنه تابع لهم، وأعتقد أن مُضيه في قتل القرى لن يكون في صالحهم لسبب ما، ولذلك أرادوا إيقافه".

- "من الصعب علي الحصول على معلومات بشأنه، لكنني سأعمل على هذا أيضا بعد عودتي... والآن أستأذنك يا سيدي، إن وقتي ينفد".

وانحنت المرأة بعد ذلك تقدم تحية وداعها:

- "سيدي، أراك لاحقا، كن على ثقة من أنني سوف أبذل جهدي...".

- "توخي الحذر يا نيفين ولا تقومي بأي مخاطرة، فبمقدوري الآن فعل الكثير انطلاقا مما ذكرتِه".

أعادت المرأة التحية ومشت مبتعدة نحو الكوخ حيث كانت تود إلقاء نظرة أخيرة على البقية، فيما عاد الأمير جابر يفكر شاردا تأكل الحيرة صدره.

- "هل أزعجك ما قالته بشأن الورقة؟".

- "أجل، كثيرا ".

- "لكن يبدو أنك تفكر في شيء آخر، وهو ما يقلقك أكثر".

- "ما قالته نيفين بالتأكيد يبعث على القلق، إذا كان شهاب قد استعمل الورقة فعلا، فلقد ساورني شك لا أريد تصديقه، على كل... أراك أصبحت تفهمين قليلا مما أشعر به، هل صار قلقي يظهر جليا في عيني؟".

- "ربما، وأيضا في صوتك".

- "تقولين ربما".

- "هذا ما قلته".

حينما بدأ الظلام يحل تدريجيا على الغابة، راحت طيور تمر فوق الكوخ في سرب متتابع، وأتت صرخات النسر كسيوف من نار تدق الأفق، وبينا تزحف السحب الجافة مثل سلاحف بيضاء كبيرة، كانت الأميرة مايا ومُثاب يعبرون الجسر الخشبي الأول عائدين أدراجهم، وأتى الآن ليث أمام الكوخ ليقول في صوت متهدج:

- "ما حيلتي في هذا؟ لكن حان الوقت لنعود أدراجنا، أنا متأكد من أنه يوجد هناك الآن في الأرض الوسطى أشرار علينا ضربهم، وإني وسيفي على أهبة الاستعداد لفعل ذلك، بداخلي غضب... وعلي إثبات ذلك لها".

- "اهدأ قليلا يا ليث، ما الذي تريد إثباته؟".

كذلك أتى الأمير جابر فوضع يده على كتف القائد ونظر مثله عاليا حيث كان النسر يحلق عائما فوق رؤوس الجبال البعيدة وأضاف بعدها:

- "أين هما؟".

- "كانتا ستجهزان قبل لحظة".

قال ليث ونظر خلفه نحو باب الكوخ مباشرة، وكانت رشا أول من خرج، ولمعت عيناه لرؤيتها :"كما كنت أقول تماما... إنها".

- "ما الذي كنت تقوله يا ليث؟".

- "لا شيء يا سيدي، كنت أقول أنها مستعدة مثلي لضربهم".

وتبسم الأمير لقوله.

- "الحب لا يأتي بالضرب يا ليث، فلا يتحتم عليك أن تمتلك ذراعا قوية لتحبك امرأة، يكفيها منك يكون عقلك جميلا".

وشعر القائد بالخجل يقرض أطرافه:

- "هل تظن ذلك يا سيدي؟".

لم يجبه الأمير جابر في تلك اللحظة، إنما استدار فرأى خولة تخرج خلف رشا فراح يسأل الجميع إن لم يكن هنالك ما قد يمنعهم من الانطلاق حالا، فلم يعترض أي أحد.

عودة

لم يمضي وقت كثير حتى كانوا ينطلقون خارج الغابة فدخلوا أرض الزهور الواسعة، وصعدوا المنحدرات الوعرة، وحينما صاروا على قمة السلسلة الجبلية فإنهم وقفوا جميعا يحدقون نحو أرض الرياح للمرة الأخيرة، وكان منظر جبالها الواقفة مثل الأصابع في جوف الظلام وشهب القمر تحط على قممها الفضية لا يقل جمالا عما تكونه في وضح النهار وهي تغرق بين الضباب بينا تنصهر أشعة الشمس عليها فتبدو وكأن جوانبها تُصبغ ذهبا رغم الخضرة التي تحيطها، كلٌ فكر في الأمر بطريقته، حتى نطق ليث قائلا:

- "تستحق هذه الأرض أميرا أفضل من شهاب أليس كذلك؟".

وقالت رشا تُعقب على كلامه:

- "فعلا".

ونظر إليها ليث عن جانب فأردفت.

- "ماذا؟ لم أنهي كلامي بعد، كنت أعني أنها جميلة فعلا مثلما يشاع عنها، بل أجمل بكثير مما تنقله الألسن".

- "لابد من أنك كنت تقصدين ذلك".

- "لا يساورك شك في هذا".
- "لكنني لا أرى ضيرا في أن توافقيني في أمر قلته".
- "لقد كان خطأً مني أنني تحدثت بعدك مباشرة".

فيما يأخذ حديثهما منحى تصاعديا، نظر الآخران نحو بعضهما في ذات اللحظة، واستمرا يحدقان في بعضهما طويلا، تذكرت خولة ما وقع هنالك في الغابة، وقررت أن تثبت أمام عينيه ولا تبعد بصرها أولا، لكن وقبل أن يجف خجلها كانت بالفعل قد حولت ناظريها مجددا نحو قمم أرض الرياح المتلألئة، ذلك أنها تذكرت ملامح وجهه حينما نزع القناع فجأة.

أبعد الأمير ناظريه عنها بعد مدة، ثم التفت هابطا الصخرة التي كانوا جميعا يقفون عليها، في هذا الجانب من الجبال كان الضوء شحيحا، لأنّ القمر كان معلقا هنالك بعيدا على الجهة الأخرى، فيما القمم العالية تحجب نوره، راحوا ينزلون الصخور والمنحدرات الترابية تباعا، مجددا كانت خولة هي أكثر شخص وجد صعوبة في التنقل، ولذلك كان الأمير جابر يساعدها أينما كانت تتواجد عقبة خطيرة في طريقهم، تارة تكون صخرة زلقة أو منحدرا خطيرا، رشا كان بمقدورها رؤية أدق تفاصيل دربهم، ولذلك كان بوسعها النزول بسرعة وسلاسة، فكانت تتقدمهم جميعا هذه المرة، بيد أنّ

ليث كان يجد صعوبة أيضا في تحديد أفضل المواضع للتشبث، لكن كان يغنيه عن ذلك أنه يمتلك يدا قوية بحيث حينما يطبق أصابعه على لسان صخري فإنّها لا تنفلت إلا إذا أراد لها ذلك، وبهذا كان يأمن على نفسه الوقوع رغم تأخره عنهم.

مع اقترابهم من خط الحراسة صارت خطواتهم أضيق وصار نزولهم أثقل، فكانوا ينزلون بخفية، تقودهم رشا نحو موضع محدد، هو صخرة تعلوها شجرة ذات أوراق كثيفة، واحتموا خلفها يمدون أعناقهم نحو مكان يبعد مسافة مائة متر أسفل منهم، كانت تدار فيه نار صغيرة، وسألها الأمير جابر عما كانت تلمحه.

- "لقد تضاعف عددهم هذه المرة، يوجد اثنان نائمان يا سيدي، فيما يبقى اثنان آخران للحراسة، لكن يبدو أيضا أنه قد نال منهما التعب".

قد نال منهما التعب، كان ذلك هو آخر ما تلقفه ليث من حديث رشا قبل أن يغرق في تفكيره، فراح يرسم خطته ويحسب حساباته، ولم يعد يعي ما كان يحدث حوله، فالأمير جابر كان بعد ذلك قد طلب من رشا أن تقترب منه وتغلق عينيها، ووضع يده على جبينها للحظات فقط، ولما كانت خولة قد فهمت مراده من ذلك فإنها أسرعت تعد قوسها، وناولته إياه بعد لحظة، أما

ليث وهو يمد بصره الثقيل في العتمة، فقد راح يشرح خطته المحكمة لمغافلة الحرس والقضاء عليهم، وظل يبربر بحديثه حتى رأى الأمير وهو يثب من أمامه نازلا، فظن أن الهجوم بالفعل قد بدأ، واستل سيفه وراح يتبعهم في عدوا حثيث وحذر، ظل يحكم أصابع يده الأربعة حول مقبض سيفه، لكن حينما وطأت قدماه المتلهفتان المكان وجد أن سهاما قد نبتت على صدور وأظهر الحرس، فكانوا يتمددون موتى حول النار بعيون مفتوحة، وظل يتأمل أجسادهم بخيبة حتى لما فهم ما وقع فعلا صار يقول هازا سيفه كأنما يحادث أحدا:

- "هذه أيضا تعد خطة جيدة، بما أنها أفضت إلى هذا، ألم يصرخ أي أحد؟... لا!! حسنا... لم يأتي أحد، لم يصرخ أحد... هذا جيد".

وخاطبه الأمير جابر حينئذ:

- "ليث، ركز معنا قليلا... ما الذي تفعله؟".

شعر القائد بالخجل مما فعله، وأرجع السيف إلى غمده ولم يتفوه بشيء بعد ذلك، وأمر الأمير بعدها بمواصلة السير فانطلقوا ينزلون المسافة المتبقية، ولحظة انتهاء المنحدر ودخولهم المنبسط الواسع الذي يقود نحو

الخيول مباشرة، تعمد الأمير جابر أن يختلي بالقائد في مؤخرة المسير قليلا، فجعل الفتاتان تمشيان في المقدمة وصار يقول لصديقه المرتبك:

- "لقد بدأت بالفعل تفقد تركيزك يا ليث، هل أنت خائف من أن ترفضك؟".

وقال ليث متلعثما:

- "هل هذا يعني أنها قد تفعل؟".

- "ستفعل، بالتأكيد ستفعل إن بقيت هكذا... حينما نعود إلى أرضنا جد وقتا مناسبا وتحدث إليها".

- "سأفعل".

- "والآن لنلحق بهما هيا".

وحثّ الاثنان الخطى حتى كانا يسيران جنب الفتاتين في خط واحد وحينما صاروا أمام الخيول مباشرة فإنهم أخذوا الحبال في أيديهم وامتطى كل حصانه وانطلقوا راكضين بعيدا عن تلك المنطقة.

...يتبع

تمت بحمد الله.